أبي العلاء المعري

دراسات

أبو العلاء المعري

منارات

هـادي الـعـلـوي ولـزومـيـات المعري

فريدة الأنصاري

في سنة ٣٦٣هـ – ٩٧٣م ولد في معرة النعمان في شمال سوريا أحمد بن عبد الله بن سليمان القضاعي التنوخي المعري، ليكون بعد سنين أحد أبرز فلاسفة وشعراء العصر العباسي،أثار ت نظرياته حول الدين والدولة والناس جدلاً كبيراً بين العلماء والباحثين من يومه حتى يومنا هذا، فتناولوا مؤلفاته بالدراسة والبحث،ومن بين تلك المؤلفات كتاب اللزوميات.

جميع هذه الأسئلة نجد إجابتها في كتاب الباحث هادي العلوي في كتابه هذا (أبو العلاء المعري "المنتخب من اللزوميات") والذي دأبت دار المدى على إعادة طبعه بعد النجاح وسعة الانتشار في طبعته الأولى.

اللزوميات أو لزوم ما لا يلزم هي ديوان المعري،بناه بطريقة مختلفة عن البناء الشعري السائد في زمانه، فالتزم ما لا يلزمه في بناء القوافي،لمزاج خاص به كما يذكر العلوي في مقدمة الكتاب. واللزوميات هي أحد ديوانيين فلسفيين ثانيهما بعنوان "أستغفر واستغفري" يتألف من عشرة آلاف بيت وهي من كتبه المفقودة.

تحمل اللزوميات أفكار المعري تجاه الدين والسياسة وأحوال الناس،طبع عام ١٩١٥ في القاهرة مرفقة بشروح مبتسرة لا تعين القارئ لصعوبة فهم كلماتها. ولتيسير قرائتها وفهم معانيها عكف هادي العلوي على طبعها بهذا الشكل المميز مقتصراً على الأمور التي تهم العصر، وتستحق أن تنشر بين جميع الأوساط الثقافية،بقطع النظر عن زمانها ومكانها. وعليه عكف على أخذ ودراسة وتحليل ما تتضمنه من نقد للدولة والدين والمجتمع وآراءه وحكمه حول الطبيعة والحياة ونظام العالم، رغم علم العلوي أن هذا الاختيار لن يحسم مشكلة التواصل مع النصوص بسبب صعوبة اللغة التي كتبها المعري،مما حدا به لوضع منهجٍ علمي يسهل المهمة على القارئ،وليكون مؤتمناً على النصوص والمفردات الأصلية، وضع – أي العلوي – تحت المفردة الأصلية ما يقابلها من مفردة تقارب المعنى أو مرادفة لها،وقريبة من لغة العصر الحاضر مع الشرح، رغم علمه بأن هذه الصيغة قد تكون ركيكة ولا تعكس أسلوب اللزوميات ولكنها كما يرى الأسلوب الأمثل لتوضيح أفكار ومفردات المعري.

ولمنهجية التدوين والنقل وضع لكل ما أختاره من اللزوميات عنواناً مستمداً من مضمونه.

لفهم فلسفة المعري ومواقفه يسلط العلوي في القسم الأول من الكتاب على

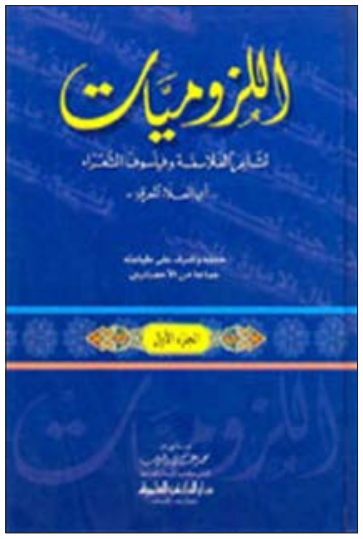

مراحل تطور الفكر الإسلامي وأثره على فكر المعري ونقده للدين والدولة والناس.

بعد أن يبين ارتباط الفكر الإسلامي بالقرآن ارتباطاً وثيقاً وكما يصفه "فهو كتاب الحضارة الإسلامية الأول" يسلط الضوء على تطور الفكر الإسلامي بعد اتساع المجتمع الإسلامي، مبيناً تباين الفكر في شعاب مختلفة، باحثاً في أسباب هذا التباين.ومن خلال ذلك يبن كيف أثر هذا التباين على توجه علماؤه وفلاسفته نحو المباحث المعقدة التي دفعتهم نحو منطق معقد إلا وهو المنطق اليوناني،وهذا نشأ كما يذكر العلوي في بيئة إمصارية تجارية مماثلة لا نجد لها مثيلاً في العصور السابقة أو في الدول النائية.والمعري بثقافته المتنوعة وشعريته وفلسفته صنع لنفسه كياناً منفرداً يستند إلى درجة خاصة من وعي الإرادة. وبريادة معارفه الكثيرة والعميقة استطاع تأصيل وعي الذات وصولاً إلى وعي الاختيار الارادوي، ليستغني عن السلطة السياسية وينقدها.

ففي نقده للدولة والسياسة طرح أموراً عديدة في لزومياته ورد الكثير منها في أوساط المعارضة والحركات الاجتماعية،ولكنه أنفرد عنها بطروحات يجسد فيها وعيه السياسي والاجتماعي الخاص به. فنقرأ ببعض اللزوميات وصفاً لأوضاع البلدان الإسلامية يكشف فيها عن الصراعات الدموية والمظالم ونهب أموال الناس. وفي لزومية أخرى يذكر بأن الملوك هم من يحتاجون إلى تأديب وليس الناس،وهذا يوجب إعطاؤهم عقول حتى يحكموا على أساس السياسة العقلية،ومن يحتاج إلى التأديب لا يصح تكريمه أو السجود له كما تفعل حاشيته.

وبوعيه الفلسفي استطاع الوقوف بوجه السلطة الدينية لينتقد الدين كايدولوجيا وشعائر،ويندد بسلوك المتدينين ورجال الدين، فهو لا يرى أي دور إيجابي لرجال الدين.فيورد نشأة الدين إلى مصالح فردية محدودة، حيث يقوم بعض الأذكياء المحتالين بصياغة عقائد وشعائر تجمع الناس حولهم وتمكنهم من استغفالهم،ليكونوا سبباً لجمع المال. "إذ استغل الكثير من الخلفاء في مصر وبغداد وحلب الفقهاء والدين كوسيلة لدعم سلطتهم وتبرير سطوتهم". فهذا الموقف يعزوه العلوي إلى أوضاع الوسط الديني الذي عاصره وإلى اتجاه عام يحكم رأيه في السلوك البشري فتصرف كمؤيد متطرف للمذهب النفسي الذي يرجع جميع تصرفات الإنسان إلى الذاتوية جاعلا من المصلحة الذاتية للفرد دافعا لجميع تصرفاته وأفعاله.

وبوجه عام يمكننا الاستنتاج كما يذكر العلوي بأن نقد المعري لجميع الأديان يهدف منه التوعية الاجتماعية أكثر من السعي لتقديم تفسير فلسفي لأصل الأديان، فهو نقد معياري بالدرجة الأولى.

وبفضل أفق المعري الواسع الذي أبتعد به عن التحزب لفئة أو لطائفة أو أمة استطاع توجيه النقد لجميع فئات الناس، بمختلف مللهم ونحلهم.

فوعي المعري بالأشياء كما يصفها العلوي هو وعي كوني،فالمفارقات التي بدت له في نظام المجتمع البشري قد رآها في نظام الطبيعة، فعدوان الإنسان يتكامل مع عدوانه على الحيوان،كما الحال مع الحيوانات واعتدائها على بعضها، ومصدر هذه العدوانية هي تلك القوة جعلت كل شيئاً مسيراً لا مخيراً،وحكمت بقانون القضاء الأزلي على الأفلاك والبشر والحيوانات، فهي تسير وتتحرك بغاية مجهولة نحو غاية معلومة هي الهلاك المحتوم لكل البشر.

وهذه النظرة الإنسانية لم تكن بالمستوى ذاته تجاه المرأة،فلم يكن منصفا لها،رغم أنه هاجم بشدة الزواج الثاني، باعتبار أكثر ما يضر المرأة هي الضرة،لقد وقف من المرأة موقفاً رجعياً بدعوته إلى التشدد في حجابها،ومنعها من المشاركة في الحياة العامة، ودعى إلى عدم تعليمها القراءة والكتابة

يختتم المؤلف هذا القسم بتحليل آراء المعري تجاه الدين والسياسة والمجتمع ليصفه بالمثقف الكوني،يتميز بتكامل تكوينه الثقافي بين الذهن والذات،فقد تخلى عن السعادة الحسية في الدنيا ليبني له صورة عالم يحيا فيه الإنسان سيداً للجسد،لا أن يصبح في الآخرة عبد للجسد. ولكنه يعيب عليه موقفه من الزنج والقرامطة.

القسم الثاني من الكتاب يورد العلوي مختارات مميزة من نقد المعري للدولة والدين والمجتمع وفق المنهج العلمي.

فيقول في لزوميته عن التمايز الطبقي في الدين

بالخلف قام عمود الدين: طائفة
تبني الصروح وأخرى تحفر القلبا
القلب جمع قليب وهو البئر.

وعن الأمير والتقي يقول:

قالوا فلان جيدٌ لصديقه
لا يكذبوا ما في البرية جيد
فأميرهم نال الإمارة بالخنا
و تقيم بصلاته يتصيد

ومن دراسة حياة المعري ولزومياته ونقارنها بحياة هادي العلوي التي حملت الصدفة اسم جدهما "سليمان" نجد التشابه الكبير بينهما، مما يمكنا القول بأن العلوي كان امتدادا للمعري رغم البعد الزمني بينهما.فالاثنان أثارت أفكارهما وآرائهما الفلسفية وطروحاتهما في الدين الكثير من الجدل، فالشك الذي راود المعري الشك ذاته الذي راود العلوي.وكما أعتزل المعري عن الناس أعتزل العلوي الأضواء ورفض الظلم، ورفض التقرب من أهل السلطة،حين تخرج من كلية التجارة والاقتصاد عام ١٩٥٥ بتفوق رفض مصافحة الملك فيصل الثاني عندما وزع الأخير الشهادات على المتفوقين.وكان مؤمناً بالعقل أشد الإيمان وزاهداً بالدنيا كارهاً للعنف والظلم ليس بمطمع في الآخرة وإنما معياراً للمجتمع الصالح.وكما كره المعري أكل اللحوم فكان العلوي هو الآخر نباتيا.

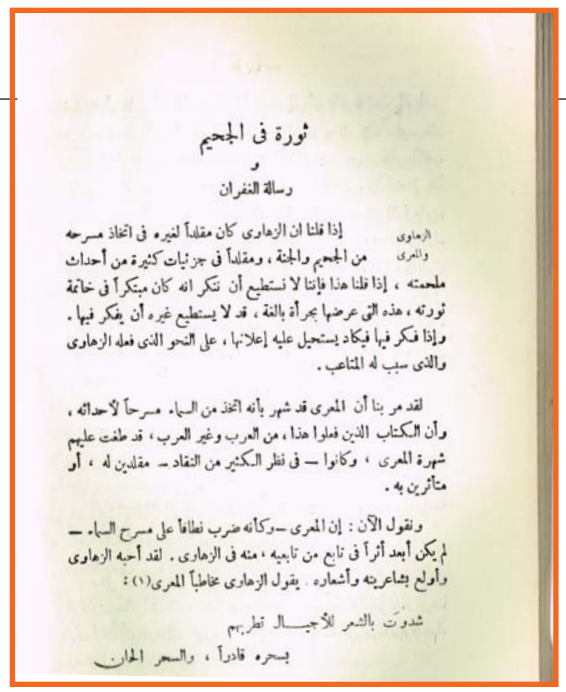

ثورة فى الجحيم
و
رسالة الغفران

الزهاوى والمعرى

إذا قلنا ان الزهاوى كان مقلداً لغيره فى اتخاذ مسرحه من الجحيم والجنة ، ومقلداً فى جزئيات كثيرة من أحداث ملحمته ، إذا قلنا هذا فإننا لا نستطيع أن ننكر انه كان مبتكراً فى خاتمة ثورته ، هذه التى عرضها بجرأة بالغة ، قد لا يستطيع غيره أن يفكر فيها . وإذا فكر فيها فيكاد يستحيل عليه إعلانها ، على النحو الذى فعله الزهاوى والذى سبب له المتاعب .

لقد مر بنا أن المعرى قد شهر بأنه اتخذ من السماء مسرحاً لأحداثه ، وأن الكتاب الذين فعلوا هذا ، من العرب وغير العرب ، قد طغت عليهم شهرة المعرى ، وكانوا — فى نظر الكثير من النقاد — مقلدين له ، أو متأثرين به .

ونقول الآن : إن المعرى — وكأنه ضرب نطاقاً على مسرح السماء — لم يكن أبعد أثراً فى تابع من تابعيه ، منه فى الزهاوى . لقد أحبه الزهاوى وأولع بشاعريته وأشعاره . يقول الزهاوى مخاطباً المعرى(١) :

شدوتَ بالشعر للأجيال تطربهم
بسحره قادراً ، والسحر الحان

الدكتور جميل سعيد

الزهــــاوي والمعــــــري..

ثـــورة في الجحيم ورســالة الغفران

إذا قلنا ان الزهاوي كان مقلداً لغيره في اتخاذ مسرحه من الجحيم والجنة، ومقلداً في جزئيات كثيرة من احداث ملحمته، إذا قلنا هذا فاننا لا نستطيع ان ننكر انه كان مبتكرا في خاتمة ثورته، هذه التي عرضها بجرأة بالغة، قد لا يستطيع غيره ان يفكر فيها، وإذا فكر فيها فيكاد يستحيل عليه اعلانها، على النحو الذي فعله الزهاوي والذي سبب له المتاعب.

لقد مر بنا ان المعري قد شهر بأنه اتخذ من السماء مسرحا لاحداثه، وان الكتاب الذين فعلوا هذا، من العرب وغير العرب، قد طغت عليهم شهرة المعري، وكانوا – في نظر الكثير من النقاد – مقلدين له، او متأثرين به.

ونقول الان: إن المعري – وكأنه ضرب نطاقا على مسرح السماء – لم يكن ابعد اثرا في تابع من تابعيه، منه في الزهاوي. لقد احبه الزهاوي واولع بشاعريته واشعاره يقول الزهاوي مخاطبا المعري:

شدوت بالشعرِ للأجيال تطربهم
بسحره قادرا، والسحر الحان
ألفاظه ومعانيه تمازجنا
كما تمازج ارواح وابدان
قصائد ومقاطيع مخلدة
سارت بها في فضاء الأرض ركبان
فيها الحقائق مبثوث فرائدها
كانها لؤلؤ رطب ومرجان

هذا حديثه عن شعره!

لقد اعجب الزهاوي بشاعرية المعري، وكان اكثر عجبا بآرائه التي خرج بها على التقاليد، وبسخريته وعصيانه، يقول:

وإن اكبر شيء فيك يعجبني
سخرية بتقاليد وعصيان

وفي هذه القصيدة يشير الزهاوي الى صلته الوثقى بالمعري بقوله:

إني تتلمذت في بيتي عليك وإن
ابلت عظامك ازمان وازمان

ويكفينا إن الزهاوي جعل المعري، هو قائد الجمهور في ثورته في الجحيم، وزحفه من النار، وكأنه لفتنته به، نسى ان الرجل اعمى وان العميان وإن صلحوا لقيادة الناس في افكارهم، فانهم لا يصلحون لقيادة الناس، في زحفهم وحروبهم.

على اننا نود ان نقف هنا وقفة قصيرة، فنقول:

لولا اننا وجدنا الزهاوي يشير الى انه رأى المعري في الجحيم ضريراً، إذ يقول في حديثه عن الجحيم:

ثم حياتي احمد المتنبي
والمعري الشيخ وهو ضرير.

لولا هذا لقلنا إنه حشره مبصرا، وهي الصورة المناسبة او الممكنة لمن يكون قائدا. اترى الثافية هي التي دفعت الزهاوي الى لفظة ضرير، هذه، حتى افسد بها صوره ومعانيه !؟ ام تراه اصر ان يحشره اعملى، مبالغة منه في عصيانه وزندقته، إذ حشره وكأنه ينظر الى الآية الكريمة "ومن اعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا، ونحشره يوم القيامة اعمى".

انني اميل الى الناحية الأولى، ناحية القافية، لأنني لا اتصور الزهاوي، وقد احب المعري كل هذا الحب وتعلق به كل هذا التعلق، حتى جملة قائد الثائرين وامامهم، يقسو عليه كل هذه القسوة، إن أبا العلاء حشر بشارا الاعمى بصيرا في غفرانه، وهو وإن حشره بصورة يفضل بها الاعمى البصير، إذ جعله يغمض عينيه حتى لا ينظر الى ما نزل به من النقم، فيفتحها الزبانية بكلاليب من نار إلا اننا نراه لم يهن عليه ان يجعله في عذابين؛ عذاب الجحيم وعذاب العمى. بل نرى المعري وقد عانى من عذاب دنياه ما عانى يأبى إلا ان يرد لمن ضعف بصره في الدنيا بصره، وهو اقوى ما يكون، في الحشر. يقول والاشارة الى ابن القارح: "..وينصرف عنه رشيدا الى حميد بن ثور، ويقول:

إيه يا حميد! لقد احسنت في قولك:

اري بصري قد رابني بعد صحة
وحسبك داء ان تصح وتسلما

فكيف بصرك اليوم؟

فيقول: إني لأكون في مغارب الجنة فالمح الصديق من اصدقائي وهو بمشارقها، وبيني وبينه مسيرة الوف اعوام للشمس التي عرفت سرعة مسيرها في العاجلة، فتعالى الله القادر على كل بديع..، ارايت اي بصر اعطاه لاشفاقه على بصره الذي رابه في العاجلة!؟ اترى الزهاوي، وقد تعلق بالمعري كل هذا التعلق واعجب به كل هذا الاعجاب نظر الى هذا كله، ثم حشره مع ذلك اعمى!؟ إننا نستبعد هذا.

الحديث عن الملكين ونعود الآن الى الثورة في الجحيم.

ونقول: غن الزهاوي قد استهلها بالحديث عن الملكين؛ منكر ونكير. ويبدو ان خوفه منهما كان يعودا في حياته بين الحين والحين لقد رثى احمد تيمور باشا، فلم يجد في رثائه اولى من ان يقول فيه:

لا يخاف الذي يموت حكيما
من سؤال لمنكر ونكير

ولعلك تعجب لهذا الضرب من الرثاء، الذي يصور الملكين من كبار الفلاسفة ولا ينجو او ينجح في امتحانهما إلا الحكيم. نقول: لقد سيطرت فكرة الملكين منكر ونكير عليه، فادار حوارهما معه في اكثر من ثلاثمائة بيت، في قصيدته هذه. وفكرة الملكين وسؤال الميت، من الأمور المعروفة التي لا جديد للزهاوي فيها.

زيارة الجنة وقال الزهاوي – والحديث عن الملكين:

ثم طارا بي في الفضاء الى الجنة حتى يغري بلومي الضمير.

وجعل لقوله هذا عنوانا: "اخذ الميت الى الجنة ليزدادهما من حرمانه اياها" والصورة – وان عكسها الزهاوي – قرآنية اوردها ابو العلاء قال:

"... ويبدو له ان يطلع الى اهل النار فينظر الى ما هم فيه، ليعظم شكره على النعم، بدليل قوله تعالى: "قال قائم منهم إني كانٍ لي قرينٍ، يقول: ائنك لمن المصدقين، ائذا متنا وكنا ترابا وعظاما إننا لمدينون.. قال: هل انتم مطّلعون، فاطلع فرآه في سواء الجحيم".

ودخل الزهاوي الجنة، بعد انٍ قال عن الملكين:

وأسرا في اذن رضوان شيئاً فاباح الجواز وهو عسير

وفكرة دخول الجنة بجواز اوردها المعري، قال على لسان ابن القارح: "... فلما صرت الى باب الجنة، قال لي رضوان: هل معك من جواز؟ فقلت: لا، فقال: لا سبيل لك الى الدخول إلا به".

طعام اهل الجنة... ودخل الزهاوي الجنة بعد ان اباح له رضوان الجواز وتلقته فاح عطرها والعبير، ووصفها بانها جنة عرضها "السموات والارض" وهي الصورة والالفاظ القرآنية، ثم تحدث عن طعامها بانه سمك مقلي، وطير شوى، وبها دوحة يقال لها الطوبى تجري من تحتها انهار من العسر ومن الخمر، ومن الالبان، قال:

ثم للسلسبيل يطفح والتسنيم
ماء يجري به التفجير

وجميع الحصباء در وياقوت وماس، وعلى ارضها زرابي بثت عليها حسان، كانهن زهور، وبها الولدان يطوفون على القوم وهم لؤلؤ منثور.. ويوالي وصفها بما لا نرى فيه جديدا بل نراه يقصر فيه عما جاء في القرآن وفي رسالة الغفران، اي تقصير.

وقد تراه يحاول ان يخرج من النطاق الذي ضرب حوله بالقرآن وبرسالة الغفران، فلا يأتي إلا بالمضحك ، يقول:

طينها من فالوذج لايمل المر
منه فهو اللذيذ الغزير

ولك ان تتصور سكان جنته الذين ينهالون على اكل طينهم، ويرونه لذيذا غزيرا، ويعمد لتصوير الطعام. فلا يأتي إلا بالمضحك من الصور ايضا، يقول:

وإذا رمت ان يحول لك التين دجاجا اتى اليك يطير واوضح انه اراد ان الدجاج اتى اليك مشويا او مطبوخا لتأكله، ذلك لأن الدجاج ليس من الطيور التي يشتهيها الناس لجمال شكلها او هيئتها او الوان ريشها او صوتها، وإنما يشتهى للحمه، وقد تعذر الزهاوي بعض العذر، إذا تصورنا ان الدجاج في ايامه – برحمه الله – لم يكن من الوفرة والكثرة على نحو ما هو عليه في ايامنا هذه: بعد ان عمد الامريكان الى تكثيره بالطرق الصناعية، حتى غزا الدنيا وملء الناس.

لقد كان في ايام الزهاوي اكلة لا ينالها إلا الموسرون وإلا المرضى – على انك ترى البون شاسعا في تصور ابي العلاء لهذه الفكرة، وتصور الزهاوي لها. يقول الزهاوي:

فإذا ما اشتهيت طيرا هوى من
غصته مشويا وجاء يزور

ويقول ابو العلاء: "ويعبر بين تلك الاكراس – اي الجماعات – طاوس من طواويس الجنة يروق من رآه حسنا، فيشتهيه ابو عبيدة مصوصا فيتكون كذلك في صحيفة من الذهب، فاذا قضى منه الوطر انضمت عظامه بعضها الى بعض، ثم تصير طاوسا كما بدأ.. وتمر اوزة مثل البختية فيتمناها بعض القوم شوءاً فتتمثل على خوان من الزمرد، فاذا قضيت منها الحاجة عادت باذن الله الى هيئة ذوات الجناح ويختارها بعض الحاضرين كردناجا وبعضهم معمولة بسماق، وبعضهم معمولة بلبن وخل، وغير ذلك، وهي تكون على ما يريدون..".

ولك الان ان تستعيد بيتي الزهاوي:

طينها من فالوذج لا يمل المر
منه فهو اللذيذ الغزير
وإذا رمت ان يحول لك التين
دجاجا اتى اليك يطير

وترى كيف توحى لنا الصورة باكلة الطين وهي من الشهوات المريضة في عالمنا، عالم الدنيا اما الصورة الثاني ةفلا ندري لم اختار ان يكون التين دجاجا، وقد يفضل – بعض الناس على الاقل – فاكهة التين على الدجاج.

ولنا ان نقول بعد هذا كله إننا نعذر الزهاوي – رحمه الله – إذا هو قصر في وصف الطعام، ولو كان طعام اهل الجنة – عن ابي العلاء. ذلك لأن الزهاوي لم يعرف عنه إنه كان نهما، كما لم يعرف عنه انه كان محروما او جائعا في يوم من ايام حياته. لقد عاش عيشة الموسرين في بيت ابيه مفتي بغداد، وناهيك بها وظيفة في ايامه، حتى إذا اعتمد على نفسه كان من سراة القوم ووجهائهم ، وعاش حياته المديدة كلها في دعة وفي رغد من العيش.

اما ابو العلاء فقد عرف عنه، انه حرم على نفسه متع الدنيا، والطعام إحداها وقد شهر بتحريمه اكل الحيوان على نفسه. على اننا بعد هذا كله نرى الزهاوي قد اسف بخياله هنا.

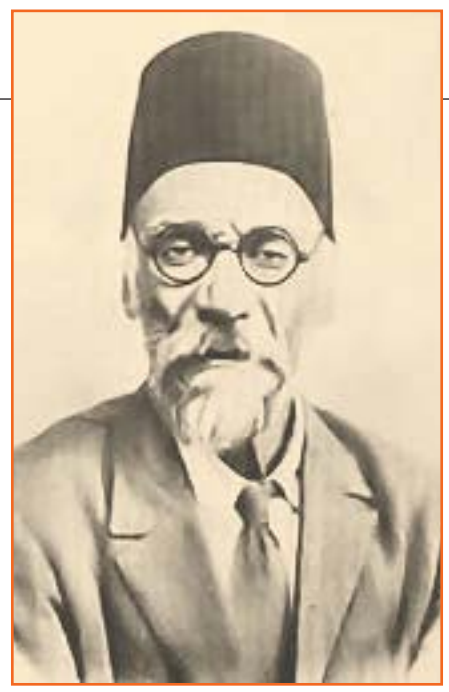

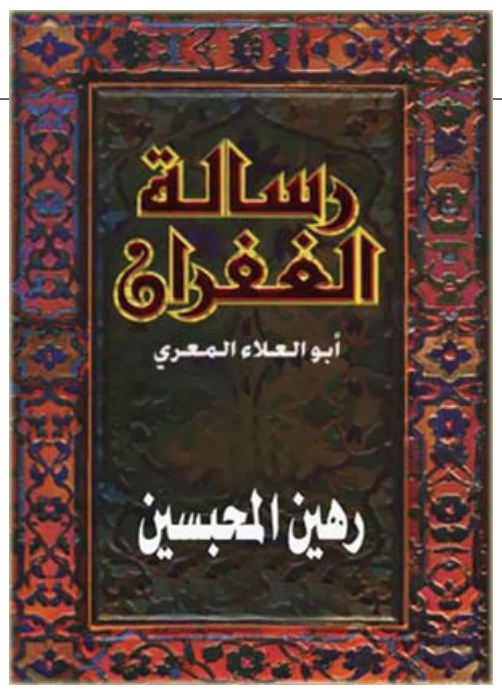

عن كتاب ثورة الزهاوي/ ١٩٦٦

أبو العلاء المعري.. القضية أكثر من قطع رأس تمثال!

سارت الرّكبان بنبأ قطع رأس الشّاعر والفيلسوف (من خلال ما طرحه في لزومياته) أبي العلاء المعري (ت ٤٤٩ هـ). أقول قطع رأس المعري لأن السّياف ما كان يقصد التّمثال، فلو قصد ذلك لهدم التّمثال كاملاً، لكنّه كان يقصد صاحبه، الذي نُصب بمسقط رأسه معرة النّعمان، من عمل نحات سوري فتحي محمد قباوة (ت ١٩٥٨)، ونُصب تكريماً للمعري عام ١٩٤٤، لمناسبة مرور ألف سنة على وفاته، هذا ما اشتهر عن المناسبة. لكن عند الحساب لا أظن أن عام ١٩٤٤ يصادف الذكرى الألفية لوفاة المعري، ذلك أنه توفى ٤٤٩ هـ والمصادف بالميلادي ١٠٥٧، وأن ١٩٤٤ تصادف بالهجري ١٣٦٣، فكيف تكون ذكرى الألفية، وهي من المفروض أن تصادف ٢٠٥٧ ميلادياً و١٤٤٩ إذا أخذت على التقويم الهجري.

رشيد الخيون

على أية حال، ليس هذا شاهد مقالنا، إنما الشاهد هو إيذاء أبي العلاء المعري في قطع رأسه، بعد مرور نحو ألف عام على وفاته، وتسعة وستين عاماً على نصب تمثاله، وتكفي هذه السّنون أن يكون جزءاً من معرة النُعمان، حيث ولد ورقد صاحبه. تحطيم النُصب التّذكارية، في حالة المعري، لا علاقة لها بالسّياسة، فلم يكن حاكماً فأسقطته ثورة أو انقلاب مثلما سيحدث لتّماثيل حافظ الأسد (ت ٢٠٠٠)، أو جداريات نجله بشار الأسد، ومثلما حدث من قبل مع نُصب صدام حسين (أعدم ٢٠٠٦) وغيرهم الكثير.

إنما كان قطع تمثال المعري لسبب آخر، فكري بالأساس يتعلق بالتّشدد الدّيني، وهو في الحالتين إن كانت فعلتها "جَماعة النّصرة" الأصولية أو فعلها النّظام السُوري كي يشيع الرُعب في نفوسَ أهل الفكر والثّقافة من الجماعات التي تحاربه، يكَون السّبب دينيا وقمعيا ضد أهل الأفكار. مع ظننا أن الذي قطع رأس أبي العلاء، حاله حال مَن صوب كاتم الصّوت على حسين مروة (اغتيل ١٩٨٧)، ومَن أطلق الرّصاص على فرج فودة (اغتيل ١٩٩٢)، ومَن وضع السّكين على رقبة نجيب محفوظ (ت ٢٠٠٦)، لم يقرأوا لهم، إنما صدرت فتوى من مشايخهم بهدر دماء هؤلاء.

تَرك أبو العلاء المعري حواراً وجدلاً، شغل به الأجيال والعصور، ولعله كان الأكثر حضوراً بين مجايليه في التراجم والرُدود، مع عدم نسيان بيت أبي الطّيب المتنبي (اغتيل ٣٥٤ هـ)، وكانَ المعري يعشقه:

أنامُ مِلءَ جُفوني عَن شَوارِدِها
وَيَسهَرُ الخَلقُ جَرّاها وَيَختَصِمُ

كان المعري مسالماً إلى كره تناول اللحوم، وعاش نباتياً، وفهم المتأخرون سلوكه هذا، فكانت الوليمة التي أقيمت في احتفالية المجمع العلمي السوري به خالية من أثر حيواني، لا بيضاً ولا لبناً، ويُنقل عَنه أنه قال متحدثاً مع فرخ الدّجاج. روى القصة ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) ناقلاً عن مجايل المعري غرس النّعمة أبي الحسن الصابئ(ت ٤٨٠ هـ): "لَم يأكل اللّحم منها خمساً وأربعين سنة، وحدثت أنه مرض مرة، فوصف الطّبيب له الفروج، فلما جيء به لمسه بيده وقال: استضعفوك فوصفوك، هلا وصفوا شبل الأسد" (معجم الأدباء).

أول ما سمعنا بالمعري، كاسم، ونحن تلاميذ المدرسة الابتدائية، لم نتعلم شيئاً عنه في المنهج، إنما عمدت وزارة المعارف العراقية، في الخمسينات، من القرن الماضي، إلى فتح مدرسة على حافة الأهوار بمحافظة الناصرية، وجعلتْ اسمها مدرسة "أبي العلاء المعري"، ولعلها قائمة حتى هذا اليوم، فأسماء كثيرة تبدلت، ومن البشارة أن يظل اسم المدرسة باقياً. فهناك أصوات علت ضد تمثال أبي نواس، الذي عاصر العابد معروف الكرخي (ت ٢٠٠)، وقيل دفنا في مقبرة واحدة.

تمثال المعري بمعرة النّعمان

قبل هذا وقف أحد فقهاء الدّين، مع انفتاحه غير المرغوب فيه من المتشددين، قُبيل الحرب العراقية الإيرانية، يطلب

إزالة تمثال أبي نواس، على أنه فارسي مجوسي. لكن أبا نواس ولد بالبصرة من أب في الجيش المرواني وأم بصرية، اسمها جلبان اشتهرت بعنايتها للأطفال اللُقطاء، وهو منحى إنساني، فالأمر يتعلق بالطُفولة، غير أن مَن كتب سيرة أبي نواس أخذ إنسانية أمه مثلباً عليه. قال ابن منظور (ت ٧١١ هـ): "امرأة موسورة بالبصرة، كانت تجمع أولاد الزّنا وتربيهم" (مختارات الأغاني). وفعلها الإنَساني هذا لا يقل أهمية مما فعله صعصعة بن ناجية جد الشّاعر الفرزدق(ت ١١٠ هـ) يوم كان يدفع ديات البنات في الجاهلية، حتى لا يَـؤدنَ، فقال الحفيد:

وجدي الذي منع الوائدات
وأحيا الوئيد فلم تُوءد

كَان أبو نواس في الحرب بين الأخوين الخليفة محمد الأمين (قُتل ١٩٨ هـ)، وأمير خراسان عبد الله المأمون، مع الأول، وكان أنصاره من العرب بينما كان أنصار الثّاني من الفرس. نعم هجا أبو نواس عربا، وهجا مواليا أيضاً، وهو شاعر الحداثة، ومن حقه ببغداده نصباً وذكرى! كذلك جرت محاولات، بعد أبريل (نيسان) ٢٠٠٣ استبدال اسم الشّارع "أبو نواس" بتسمية المهدي، مع أن المهدي لم يلد ولم يغب ببغداد بل بسامراء، حسب المشهور من الأخبار. لكنه العناد والاستحواذ، فمثل أبي نواس ليس له جيش ولا ميليشيا تدفع عنه الأذى، بينما كم ارتقت بغداد وشاع التبغدد (التحضر) عبر شعره.

بعد اسم تلك المدرسة عرفنا أبا العلاء المعري عن طريق رائعة محمد مهدي الجواهري (ت ١٩٩٧) "قف بالمعرة"؛ التي ألقاها العام ١٩٤٤، بحضور طه حسين (ت ١٩٧٣)، وقد اهتز لها الأخير، بمناسبة ألفية الشّاعر. وليس تعصباً بلدانياً للجواهري لأنه العراقي، غير أن الحقيقة أنه لم يُقل في المعري مثلما قال فيه الجواهري، بل شرحت القصيدة خفيات فكره، وبسطت للأجيال شخصيته وسلوكه. واعترض على مَن قال: إنها بداية الجواهري، بل له قصائد معلقات منذ العشرينات من القرن الماضي، لكن الكلام يرمى على عواهنه عندما يقول أحدهم إن هذه القصيدة كشفت شاعرية الجواهري، وهي من مطولات الشّاعر، ولو قرأها قاطع رأس تمثال أبي العلاء المعري، وكان منصفاً، لاعتذر عن فعلته.

تحدث الجواهري عن ولادة قصيدته "قف بالمعرة"، كان مسافراً إلى الشّام مع ناظم الزّهاوي وحسن الطّالباني، فأنزل في نقطة التّفتيش، والتحق بعدها، وكان ذلك (١٩٤٤) أوان الانتداب الفرنسي، وبطريق الصدفة علم أنه ضمن الوفد العراقي المقرر حضور ألفية أبي العلاء، أخبر بذلك قبل أسبوع، وهو قبل يوم لم تكتمل لديه القصيدة، فقد كتب قصيدة تضمنت سبعين بيتاً، لكنه مزقها ورماها، لأنه لم يجد فيها أبا العلاء المعري، فاصطحبه صديقه عمر أبو ريشة معه إلى زحلة لبنان، وهناك حضر المطلع فقط (الجواهري، ذكرياتي).

اكتملت القصيدة ليلة المهرجان، وتضمنت نحو مئة بيت. حضر المهرجان طه حسين وكبار الأدباء، ودفع طه خمسة آلاف جنيه لإتمام بناء قبر أبي العلاء، والصرف على نشر كتبه (الجواهري، ذكرياتي).

بهذا يمكن القول: إن طه حسين يرى نفسه في المعري، فهو العام ١٩١٤ يكتب "ذكرى أبي العلاء"، ويقدمها في ما بعد لنيل الدكتوراه الأُولى (١٩٢٥)، فالثّانية كانت عن ابن خلدون، وهو يتحمس لهذا المهرجان ويصرف عليه، وأن الجواهري كان وهو يقرأ قصيدته يشير إلى طه بلا قصد، وكأنه يخاطب المعري، فقد جمع بينهما العمي والفكر أيضاً. يقول الجواهري واصفاً ذلك الموقف: "بينما كنت ألقي القصيدة كانت يدي اليمنى تمتد، عفو الخاطر، إلى الكتف اليسرى للدكتور طه حسين، الذي كان بجانبي، وهذا الرّجل ليس أبا العلاء، لكنه كان الوحيد ممَن يجمع ما بين فكره وملامحه شيئاً غير قليل من خصائصه" (ذكرياتي).

أبو العلاء المعري بعد قطع رأسه!

كانت واحدة من روائعه، وسماها شاعرها بتاج القصائد، التي قالها آنذاك. مَن يسمعها بصوت الجواهري أو يقرأها في ديوانه قد يكتفي بفهم المعري، ويندفع لقراءة كتبه ودواوينه، ومطلعها وأول أبيات منها:

قف بالمعرة وأمسحْ خَدّها التّربا
واستوح مَن طوّق الدُّنيا بما وهبا
واستوحِ مَن طبب الدُّنيا بحكمته
ومَن على جُرحها من رُوحه سّكبا
وسائلِ الحُفرة المرموق جانبُها
هل تبتغي مَطعماً أو ترتجي طَلبا
يا بُرجُ مفخَرة الأجداث لا تِهني
أن لم تكوني لأبَراج السّما قُطبا
فكلُّ نجمٍ تمنى في قرارته
لو أنّه بشُعاع منكَ قد جُذبا

وتجده يصف أحوال المعرّي، ويصوره وهو في بساطة العيش وثراء الفكر قائلاً:

من قبلِ ألف لَو انّا نبتغي عظةً
وعَظْتَنا أنْ نَصونَ العلمَ والأدبا
على الحصيرِ.. وكوزُ الماء يَرفدُه
وذِهنُه.. ورفوفٌ تحمِلُ الكتبا

ومنها البيت المشهور:

لِثورة الفكرِ تأريخ يحدّثنا
بأنّ ألفَ مسيح دونّها صُلبا

ويختم الجواهري قصيدته، الّتي أراد لها أن تكون معلقة في العدد، مثلما كانت معلقة في الحبكة:

لكنّ بيَ جنَفَاً عنِ وعي فلسفة
تقضي بأنّ البرايا صُنّفتْ رُتَبا
وأنّ مِن حِكمةٍ أنْ يجتني الرُّطبا
فردٌ بجَهد ألوف تعلكُ الكَربا

هذا ولم يكن الجواهري وحده من بين العراقيين الذين قدروا أدب المعري وفكره، بل سماه معروف الرّصافي (ت ١٩٤٥) بشاعر البشر (كتاب الشخصية المحمدية)، وصنف فيه أكثر من كتاب، تركها مخطوطات، ثم طُبعت بعد وفاته، مثل: "على باب سجن أبي العلاء المعري" (بغداد ١٩٤٦)، وكتاب "آراء أبي العلاء المعري" (بغداد ١٩٥٥).(صفوة، معروف الرصافي).

لقد أثر المعري كثيراً في رواد النّهضة الفكرية العربية، وفتح لهم ومهد لجني ثمار النّهضة الأوروبية، فالأصل كان هنا وفي قصائد المعري، ورسائل إخوان الصّفا، الذين يقول طه حسين: إنه تأثر بهم عندما أقام ببغداد سنة وسبعة شهور، وعاد يكتب روائعه بمعرة النّعمان، وشعره يؤكد إقامته ببغداد وانتفاعه منها، وهو القائل: لنّا ببغدادَ مَن نِهوى تحيته

فإن تحَملها عنّا فحُيينا (سقط الزّند).

لقد خيب الجواهري ظنون الذين ظنوا أن شاعر القصيدة وموضوعها قد بعدا عن الدّين، وعليه استحق المعري أن يُقطع رأسه. قال:

آمنت بالله والنُّور الذي رسمَتْ
بهِ الشّرائعُ غُرّاً منهجاً لَحِبا
وصُنتُ كّل دُعاة الحقّ عن زَيغ
والمُصَلحينَ الهداةَ ألعُجْمَ والعَرَبا
وقد حَمِدتُ شِفيعاً لي على رَشَدي
أُمّاً وجدتُ على الإسلام لي وأبا

(الدّيوان)، والقصد لا يحتاج إلَى تفسير وتأَويل.

عن موقع مجلة المجلة الالكترونية

بين ناصر خسرو وأبي العلاء المعري

محمود ياسين خلف

ناصر خسرو واحد من أعمدة الشعر الفارسي وله مؤلفات هي: ديوان شعري يزيد عدد أبياته على أحد عشر ألف بيت، و«زاد المسافرين» الذي كتبه نثرا ليوضح فيه فكر الاسماعيلية التي تقوم عليها دعوتهم، و«سفر نامة» وهو أهم كتاب له سجل فيه أخبار رحلاته التي استمرت سبع سنوات في العالم الاسلامي، ولهذا يعد الكتاب ذا أهمية كبيرة في جغرافية البلدان التي زارها وكذلك تاريخها حيث كان خسرو حريصاً على وصف كل اقليم يزوره وصفاً دقيقاً سواء من ناحية الطقس أم المحاصيل التي ينتجها أم الانهار التي تمر بهذا الاقليم أو ذاك، كما كان يعرض الوضع السياسي لكل اقليم ويتحدث عن حكامه وحالة الأمن هناك، وأكثر الاقاليم التي حظيت باهتمامه، وأسهب في وصفها، هي مصر، وربما يرجع ذلك الى انه قضى فيها أكثر من أي مدة قضاها في أي بلد في اثناء رحلته، إذ عاش هناك ثلاث سنوات متتالية وأتاحت له هذه الاقامة الطويلة فرصة التعرف على نظام الحكم الفاطمي في مصر، وعلى أحوال مصر المناخية والاجتماعية، ولهذا يعد الكتاب مرجعاً مهماً في التعرف على طبيعة الحياة في مصر ابان منتصف القرن الخامس الهجري، ومما يتميز به الكتاب (سفر نامه) ان أسلوبه جاء بعيداً كل البعد عن التكلف والمغالاة في الصنعة. ولعل ناصر خسرو ألفه بهذا الأسلوب الذي يمكن أن نطلق عليه (السهل الممتنع) لكي يكون في متناول فهم الخاصة والعامة على حد سواء وقد نجح في ذلك، إذ حاز هذا الكتاب على شهرة كبيرة بين الجميع فطبع عدة مرات وترجم الى لغات عدة منها الفرنسية، إذ قام شيفر (SHEFER) بطبعه وترجمته في باريس عام ١٨٨١م، كما ترجمه الى العربية د.يحيى الخشاب. ومن سمات هذا الكتاب انه خلا من المصطلحات الفلسفية التي تسخر بها تعاليم فرقة الاسماعيلية وتجنب الخوض في غمار هذا التيار الفلسفي ومما نخرج به من الكتاب وسيرة مؤلفه ان السياحة العلمية كانت ميسورة لكل مسلم لكي يطوف في كل ربوع العالم الاسلامي من شرقه إلى غربه من دون وجود حدود اقليمية تمزق الوحدة الاسلامية وتضعف كيان العالم الاسلامي كما هو الحال في عصرنا الحديث فكم من عالم أراد الاستزادة من بحار العلم فهجر موطنه الأصلي وتحرك صوب مراكز العلم والحضارة في العالم الاسلامي سواء في بغداد أم دمشق أم القاهرة أم مكة.

ومن سمات الكتاب كذلك انه كان يتحدث عن فضلاء وأدباء وعلماء كل بلد يزورها ولذا يعد الكتاب إلى جانب مزاياه السابقة، ذا فائدة في التعريف لبعض هؤلاء الأعلام الذين التقى بهم ناصر خسرو في رحلته، وعلى سبيل المثال ما قاله عن أبي العلاء المعري عندما التقى به في (معرة النعمان):- «في تلك المدينة كان يوجد رجل يقال له أبو العلاء المعري، وكان ضريراً، كما كان حاكماً للمدينة، يملك نعماً وفيرة والعديد من الغلمان والعمال، وكان جميع سكان المدينة بمنزلة العبيد لديه. اما هو فقد اتخذ الزهد طريقاً له. فكان يرتدي خشن الثياب ويلزم داره وكان يستهلك نصف رغيف من الشعير، إذ لم يكن يأكل خلاف ذلك مطلقاً. ولقد سمعت ان باب قصره كان مفتوحاً على الدوام وكان نوابه وملازموه يصرّفون أمور المدينة ولا يرجعون اليه الا في الأمور الكبيرة. ولم يكن يحرم أحد من نعمائه، اما هو فكان صائم الدهر، قائم الليل على الدوام ولا يشغل نفسه بشغل الدنيا على الاطلاق، وقد وصل هذا الرجل في مجال الشعر والأدب الى درجة ان أفاضل الشام والمغرب والعراق قد أقروا انه خلال ذلك الزمان لم يصل الى مكانته أي شخص ولن يصل. وعلى الدوام كان يفد اليه أكثر من مائتي شخص من الأطراف ليقرؤوا بين يديه الأدب والشعر وقد سمعت بانه نظم شعراً يزيد على المائة ألف بيت».

وقد سأله أحد الأشخاص: لقد منحك الله تبارك وتعالى كل هذه الاموال والنعم فلماذا تمنحها للاخرين وتحرم نفسك؟ اجاب قائلا: ليس لي اكثر مما اطعمه! وعندما كنت هناك (بمعرة النعمان) كان هذا الرجل على قيد الحياة (اي ابي العلاء المعري).

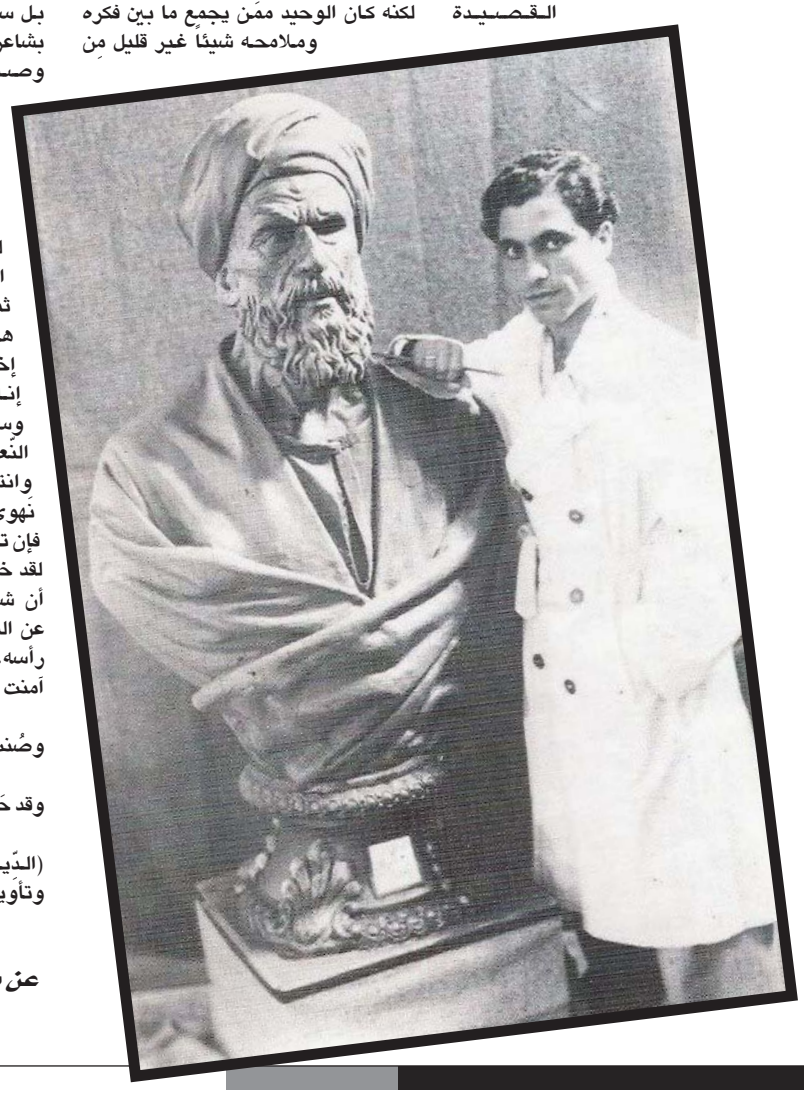

أبـو العلاء المعـري كما رآه طه حسـين: فيلسوف مشاكس

ابراهيم العريس

من المؤكد أنه لم يكن من المنطقي أن يمر الناس مرور الكرام بالجريمة «الرمزية» التي ارتكبت في سورية قبل أسابيع في حق تمثال. فالتمثال المعني لم يكن لشخص سياسي أو لنكرة، بل كان لواحد من أكبر الشعراء والفلاسفة في التاريخ العربي... ويقيناً أن المتخلفين الذين قطعوا رأس التمثال، لم يفعلوا ذلك لأسباب جمالية ناتجة من قبحه – لو أعلنوا ذلك لكنا معهم! ولكن لأسباب لها علاقة بالتعبير عن موقف فكري وبالتالي سياسي. موقف يحاول أن يتصدى للعقل قائلاً إن جزءاً من «الربيع العربي» الموعود هو هذا أيضاً... هو انتصار للظلام على النور، وللهمجية على التحرر وللإرهاب على العقل... ونعرف أن هذه لم تكن المرة الأولى التي يُقدم فيها هذا النوع من الناس على هكذا جريمة في حق الفكر وليس فقط في حق صاحب التمثال، أبي العلاء المعري. وللمناسبة، لتذكير القارئ بمن هو أبو العلاء ولماذا يعبث المتخلفون بتمثاله، لا بأس من العودة هنا إلى ما بعض ما كتبه «معري» القرن العشرين العربي، طه حسين، عن سلفه الكبير في واحد من أول كتبه التي طبعت الجزء العقلاني من هذا القرن العشرين بطابعها.

«... ثم عرض لي أن أدرس حياة أبي العلاء، ذلك الذي أبغضته ونفرت منه، ولست أدري لم حُبّب إليّ البحث عن هذا الرجل؟ ولم كَلفت به الكَلَف كله؟ مع أن كتبه قد ضاع أكثرها، فقد خيل إلي أني أستطيع أن أجد في ما بقي منها ما يشفي الغليل. وقد سمعت الناس يتحدثون عن اللزوميات فلا يتفقون فيها على رأي. وسمعتهم يصفون أبا العلاء بالإسلام مرة وبالكفر مرة. ورأيت الفرنج قد عُنوا بالرجل عناية تامة، فترجموا لزومياته شعراً إلى الألمانية، وتُرجمت «رسالة الغفران» وغيرها من رسائله إلى الإنكليزية، وتخيروا من اللزوميات والرسائل مختارات نقلوها إلى الفرنسية، وأكثروا من القول في فلسفته ونبوغه. ورأيت بيني وبين الرجل تشابهاً في هذه الآفة المحتومة، لحقت كلينا في أول صباه، فأثرت في حياته تأثيراً غير قليل...».
بهذه العبارات، قدّم الشاب الذي كانه طه حسين في عام ١٩١٤ لأول كتاب صدر له، بعد تخرجه في الجامعة المصرية. وكان هذا الكتاب في الأصل أطروحته لنيل «شهادة العالمية ولقب دكتور في الأدب»، الأطروحة التي قدمها عام ١٩١٤ نفسه ونوقشت في ربيع ذلك العام، ليكون طه حسين بها، أول من ينال الدكتوراه من هذه الجامعة في تاريخها. أما العنوان الذي وضعه للكتاب فهو «تجديد ذكرى أبي العلاء». والحقيقة أن هذا الكتاب/ الأطروحة، سيكون الحلقة الأولى في سلسلة كتب ودراسات عدة وضعها طه حسين عن شاعر المعرة وفيلسوفها، تؤكد الكثير من الروابط بينهما، ومن هذه الحلقات: «مع أبي العلاء في سجنه» و «صوت أبي العلاء».

قسم طه حسين الأطروحة إلى خمسة مقالات، تلي التمهيد العام الذي وضعه له، وهذه المقالات هي تباعا: «زمان أبي العلاء ومكانه» و «حياة أبي العلاء» و «أدب أبي العلاء» و «علم أبي العلاء» و «فلسفة أبي العلاء». والحقيقة أن كل هذه الأمور تبدو لنا معروفة، ولكن من المؤكد أن أبا العلاء كان معروفا أقل ومستساغا أقل أوائل القرن العشرين، حين اختاره طه حسين موضوعاً لأطروحته، تماماً كما ستكون حال ابن خلدون، الذي سيكون طه حسين أيضاً من أوائل مجددي الاهتمام به، حين اختاره واختار فلسفته موضوعاً لدراسته اللاحقة في جامعة السوربون. ولعل أهمية إضافية يمكن هنا أن نسبغها على دراسة طه حسين الأولى لأبي العلاء، هي التي تكمن في أن طه جرب على دراسته تلك، فلسفة الشك، وإن في شكل بدائي، تلك الفلسفة التي ستطبع لاحقاً دراساته كلها وإن يكن بمضامين أكثر وضوحاً وعمقاً في الوقت نفسه.

يوضح طه حسين، منذ التمهيد انه جعل «درس أبي العلاء درساً لعصره» مضيفاً انه استنبط «حياته مما أحاط به من المؤثرات، ولم أعتمد على هذه المؤثرات الأجنبية وحدها. بل اتخذت شخصية أبي العلاء مصدراً من مصادر البحث، بعد أن وصلت إلى تعيينها وتحقيقها، وعلى ذلك فلست في هذا الكتاب طبيعياً فحسب، بل أنا طبيعيّ نفسيّ أعتمد ما تنتج المباحث الطبيعية ومباحث علم النفس معاً». والحقيقة أننا لإدراك أهمية هذا الكلام يتوجب علينا أن نتذكر أنه كتب أوائل القرن العشرين، في وقت كانت أوروبا لا تزال عند أول اكتشافها، مع فرويد، دور علم النفس والتحليل النفسي في دراسة الأدب وعلاقته بحياة الأديب. وانطلاقاً من هنا يصبح من الأسهل على القارئ فهم تلك الصورة التي إذ أثرت عن أبي العلاء، واستخدمت إما لمدحه وإما لذمه، إما لتكفيره وإما لحمايته، صارت لدى طه حسين إطاراً لفهم العصر وفهم الرجل. وهكذا يؤكد لنا طه حسين، في التمهيد، ثم بتفصيل مسهب خلال فصول الكتاب أن أبا العلاء «ثمرة من ثمرات عصره، قد عمل في إنضاحها الزمان والمكان والحال السياسية والاجتماعية والحال الاقتصادية. ولسنا نحتاج إلى أن نتذكر الدين، فإنه أظهر أثراً من أن نشير إليه، ولو أن الدليل المنطقي لم ينته بنا إلى هذه النتيجة لكانت حال أبي العلاء نفسه منتهية بنا إليها، فإن الرجل لم يترك طائفة من الطوائف في عصره، إلا أعطاها وأخذ منها (...) فقد هاج اليهود والنصارى، وناظر البوذيين والمجوس، واعترض على المسلمين، وجادل الفلاسفة والمتكلمين، وذم الصوفية، ونص على الباطنية، وقدح في الأمراء والملوك، وشنع على الفقهاء وأصحاب النسك، ولم يعف التجار والصناع من العذل واللوم، ولم يُخل الأعراب وأهل البادية من التفنيد والتثريب. وهو في كل ذلك يرضى قليلاً ويسخط كثيراً، ويظهر من الملل والضيق، ومن السأم وحرج الصدر، ما يمثل الحياة العامة في أيامه، بشعة شديدة الإظلام».

وإذ يؤكد طه حسين، في المقالة حول فلسفة أبي العلاء، أن هذا الأخير كان فيلسوفاً حقاً، نراه يدلل على ذلك بقوله إن الفيلسوف، في تعاريفه الأصلية هو الرجل الذي درس العلوم الطبيعية والإلهية والخلقية درساً علمياً متقناً، وبسط سلطاتها على حياته العملية وسيرته الخاصة، فلم يكن تناقض بين هذه العلوم وأعماله. أما إذا أتقن الرجل هذه العلوم لكن حياته ناقضتها «إذ يعرف الفضيلة ويناضل عنها ولكنه لا يصطنعها في سيرته» فإنه لا يكون فيلسوفاً، وإنما هو عالم بالفلسفة... وإذ يحدد طه حسين هذا يقول: «فإذ صحّ هذا، فإن ما قدمنا في المقالة الثانية من سيرة أبي العلاء وأخلاقه وحياته في منزله وبين الناس، ومن درسه الفلسفة في أنطاكية وطرابلس وبغداد، يدلنا على أنه كان فيلسوفاً حقاً، كما سيدلنا على ذلك درس اللزوميات...».

ولعل من المفيد أن نلتفت هنا إلى أن طه حسين، نشر الكتاب نفسه في طبعة ثانية، صحيح أنه لم يحدث فيه أي تعديل، على رغم انتقادات عدة وجهت إليه، غير أنه وضع مقدمة لتلك الطبعة الجديدة، أبدى فيها من النقد لعمله ما لم يتجرأ آخرون على إيراده بمثل ذلك الوضوح، موضحاً أن في الكتاب «فصولاً وأقساماً تحتاج إلى التغيير» وأعطى مثالاً على ذلك المقالة الخامسة التي رآها «شديدة الإيجاز تحتاج إلى أن يُفصّل القول فيها تفصيلاً يفي بما بينها وبين حكمة الهند وفلسفة ابيقور من صلة»، والمقالة الثالثة التي لا تخلو كذلك من «إيجاز في وصف الآثار الأدبية لأبي العلاء». ويستطرد طه حسين هنا آخذاً على معظم منتقدي كتابه أنه لم يجد «في ما كتبوه إلا شتماً وسباً، وإلا طرقاً في الفهم معوَجّة، ومناهج في التفكير عتيقة» خاتماً: «وما زلت أنتظر نقد الناقد المخلص لا يدعوه إلى نقده إلا حب العلم والرغبة في الإصلاح...».

حين أنجز طه حسين أطروحته هذه، كان في الخامسة والعشرين، إذ إنه من مواليد عام ١٨٨٩ الذي شاءت المصادفة أن يولد فيه أيضاً بعض أقطاب العصر الليبرالي الكبير في الفكر العربي مثل العقاد والمازني وعبدالرحمن الرافعي وميخائيل نعيمة. وطه (طاهر) حسين، ولد فقيراً قرب مدينة مغاغة، ثم أصيب صغيراً برمد أفقده بصره – وهو لاحقاً سيكتب سيرته كلها في كتابه الرائد «الأيام» –، وانتقل في عام ١٩٠٢ ليدرس في الأزهر حيث أظهر ذكاء ونجابة كبيرين، كما أظهر تمرداً ومشاكسة.. وكل هذا لن يفارقه طوال حياته التالية التي مرت بالجامعة المصرية ثم بالدراسة في فرنسا والعودة إلى مصر... وبدء رحلة قادته إلى أعلى المراتب الجامعية ثم الوزارية وانزرعت في كتب مهمّة ألفها، منها ما أثار زوابع، ومنها ما علّم أجيالاً، منها ما ألفه ومنها ما ترجمه... كل هذا جعله عميداً للأدب العربي عن حق، وعلامة أساسية من علامات الفكر العقلاني العربي طوال القرن العشرين، هو الذي توفي في عام ١٩٧٣.

نقلاً عن صحيفة "الحياة" ٢٠٠٨

زيارة "المعري" لبغداد مثابة مهمة في حياته وتوجهاته

شكيب كاظم

هناك مثابات في حياة الشخوص والأفراد ، ومنعطفات مؤثرة في توجهاتهم الحياتية يستوي في ذلك الجميع سواء أكانوا من عامة الناس أم من خاصتهم ، ولقد كانت رحلة الشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري ٣٩٣.٤٤٩ هـ إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية من المؤثرات الخطيرة في حياته، إذ كانت هذه الرحلة التي نافت على السنتين فاصلا مهما بين عهدين أو توجهين في حياته فلقد اجمع مؤرخو الأدب على انه غادر مكان سكنه وولادته ، معرة النعمان التي تقع بين حلب وحماة من بلاد الشام متوجها إلى بغداد أخريات سنة ٣٩٨ هـ ليصل إليها بداية عام ٣٩٩ وظل فيها حتى غادرها عام أربع مئة ، لست بيقين من رمضان . والمعري احمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي الذي كان ينظر إلى المستقبل بما يشبه المتنبئ ، هو الذي فقد نعمة البصر ليعوضه الخالق ببصيرة نافذة خارقة للحجب، كان يؤرخ لنفسه كي يمنع اللبس والإبهام وتقولات من يهرف بما لا يعرف. فهو من خلال رسائله إلى أهل معرة النعمان كان يضع النقاط على الحروف خشية الالتباس حينما يأتي من يترجم لحياته ويكتب عنها من المعاصرين والتالين. واجهت المعري في رحلته إلى بغداد بعض الحوادث التي جعلته يفكر مليا في جدوى البقاء في بغداد أم مبارحتها نحو مسقط الرأس ومهوى الأفئدة ، الوطن معرة النعمان ؟. فهو اذ وصل بغداد كانت المدينة تعيش تحت وطأة وفاة الشريف الرضي الطاهر أبي الشريف الرضي والشريف المرتضى وإذ يقرر حضور مجلس الفاتحة يسمع ما يعكر صفو وجدانه وحياته مذكرا إياه بعاهته ، عاهة العمى لقد استكثر عليه بعضهم، ولا يعرفون من هو، استكثروا على أعمى لم يلبس فاخر الثياب أن يحضر مجلس عزاء شريف عزيز هو الطاهر فنبزه بعاهته، لكن المعري رد الصاع مئة صاع ، قائلا : الكلب هو من لا يعرف للكلب سبعين اسما ردا على النابز القائل: إلى أين يا كلب؟

ويظل يحيا في بغداد يمضي أيامه بما يُقرأ عليه من كتب ومصنفات بيت الحكمة، لكنه يظل يرنو إلى معرة النعمان، خاصة بعدما ألح عليه أخوه بالعودة ومبارحة بغداد، وكتب قصيدة يهجو فيها بغداد ويصفها بأقذع النعوت والأوصاف ، ولقد لمست ذلك لدى العديد من الذين آوتهم بغداد وأغدقت عليهم الخير والشهرة والمجد، فلقد هجاها بدر شاكر السياب مرّ الهجاء حاملا كل عقد الريف إزاءها واصفا إياها بـ (الماخور) مع إنها منحته الشهادة الجامعية والشهرة في عالم الأدب والسياسة والشعر خاصة، وكذلك أنكر فضلها الروائي والقاص عبد الرحمن مجيد الربيعي ، فمن يقرأ رواياته وخاصة (الوكر) يجد فيها تصويرا مخالفا لواقع الحياة البغدادية ، مؤكدا صور الجنس والنسوة الرخيصات ، ويبقى الإنسان يمتح صوره من واقع حياته .

أبو الهيثم عبد الواحد اخو المعري يهجو بغداد طالبا من أخيه مبارحتها والعودة إلى معرة النعمان في قصيدة مطولة نقل منها العديم في كتابه (الإنصاف) أربعة وثلاثين بيتا كما تقول الباحثة الكبيرة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) في كتابها الممتع (أبو العلاء المعري) الصادر عام ١٩٦٥ ضمن سلسلة (أعلام العرب) .

بغداد لا سقت ربوعك ديمة
وغدت رياضك حنظلا ومرارا
أنت العروس يروق ظاهر أمرها
وتكنّ شيئا في اليقين وعارا
أضرمت قلبي باجتذابك ماجلا
كالسيف أعجب رونقا وغرارا

لكن أبا العلاء المعري لا ينكر فضل بغداد عليه كما أنكره المنكرون المجحدون بل يعترف بفضل البغداديين عليه قائلا (والله يحسن جزاء البغداديين فلقد وصفوني بما لا استحق وعرضوا عليّ أموالهم عرض الجد فوجدوني غير جذل بالصفات ولا هش إلى معروف الأقوام) هو الزاهد بالحياة الذي لم يقبل عروض داعي الدعاة الفاطمي المادية يوم راسله هذا وألح عليه والحف، والمعري يدافعه محاولا اتقاء أذاه مما عجل في موته، أو كان سببا مباشرا ومهما فيه خاصة وان هذه المراسلات التي كان المعري راغبا فيها لأنه غير راغب في محاورة هذا الدعي المتحجر ، جاءت وقد تعاورت عليه الأوجاع وتكالبت عليه السنون والعلل .

المعري المحب لمدينة بغداد بالرغم من قصر المدة التي عاشها فيها والتي لا تزيد على السنتين والتي كانت بدايتها حضوره لمجلس عزاء الشريف الطاهر وإلقاؤه قصيدة من غرر قصائده ارتجالا في رثاء الطاهر مما جلب انتباه ابنيه الشريفين الرضي والمرتضى وهما ما هما عليه من أدب وثقافة وشعر فيذهبان إليه متسائلين: لعلك أبا العلاء المعري؟ وكانت شهرته قد تجاوزت المعرة وبلاد الشام نحو بغداد عاصمة العلم والأدب والشعر، فيكرمان وفادته، شاءت النهاية نهاية حياته في بغداد أن تكون .كذلك. في مجلس الشريف المرتضى فيرد ذكر المتنبي فينقص المرتضى من قدره ولأن المعري لا يقبل التدليس والمداجاة يدافع عن المتنبي قائلا :لو لم يكن للمتنبي من فضل لكفاه فخرا قوله : لك يا منازل في القلوب منازل

فعدها المرتضى تعريضا به فأمر به فسحب من المجلس مهانا لان ما استشهد به المعري إنما هو عجز من قصيدة رائعة شائعة يرد فيها هذا البيت :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص
فهي الشهادة لي بأني كامل

ترى هل كان المعري يقصد التعريض بالمرتضى أم انه استشهد بعجز البيت ليشير إلى قصيدة المتنبي العصماء تلك ؟ وهل كان المرتضى محقا في تفسيره وتأويله لقولة المعري أم إنها جاءت رمية من غير رام ؟

كانت هذه الاهانة التي لحقت بالمعري وسحبه من مجلس الشريف المرتضى مذلا مهانا خاتمة لعلاقته مع بغداد إذ أزمع مع نفسه ووطنها على الرحيل حتى إذا غادرها في الرابع والعشرين من شهر رمضان سنة ٤٠٠ هـ كان يمني النفس بلقاء أمه تعويضا عن الم مغادرة بغداد هذا الحضن الرؤوم الرؤوف الذي يبقى الإنسان منا يهفو إليه مهما امتد به العمر وكبر، ويظل يحس بألم الفقدان وخسارته على رغم السنين ولكن كانت ضربة الدهر أسرع فلقد تخطفها الموت مما أوقع المعري في هاجس الوحدة والشعور بالإثم لمبارحته إياها ومغادرتها الحياة دون أن تكتحل عيناها بمرآه وتكون هذه الفاجعة فاصلا مهما بين عهدين من حياته فلزم بيته ومعرته ، معرة النعمان لا يبارحهما مقررا :

أراني في الثلاثة من سجوني
فلا تسال عن الخبر النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي
وكون النفس في الجسم الخبيث

وإذا كان أخوه أبو الهيثم عبد الواحد قد هجا بغداد عن قناعة أو بقصد استرداد أخيه وحثه على العودة إلى معرة النعمان، فان المعري على الرغم مما واجه من تصرف لا يليق بالطرفين المرتضى والمعري فلا يليق بالمرتضى أن يأمر غلمانه ليسحبوا المعري وما كان المعري يستحق مثل هذا التصرف، كذلك ما كان جديرا بابي العلاء أن يستشهد بهذا البيت الإشكالي حمال الأوجه والقابل للتأويل، لكن ظل يحمل بين جوانحه حبا لها على الرغم من انه قد أزمع عنها رحيلا ليقول قصيدة طويلة جميلة مؤثرة ومعروفة:

كلفنا بالعراق ونحن شرخ
فلم نلمم به إلا كهولا
وردنا ماء دجلة خير ماء
وزرنا اشرف الشجر النخيلا
وأبنا بالغليل وماشتفينا
وغاية كل شيء أن يزولا
تأملنا الزمان فما وجدنا
إلى طيب الحياة به سبيلا

لتلخص هذه الأبيات فلسفة المعري في الحياة (كل شيء في الحياة إلى زوال وليس إلى طيبها من سبيل إن كان فيها طيب)

قـــف بـــالـــمـــعـــرة

محمد مهدي الجواهري

قِفْ بالمعَرَّةِ وامسَحْ خَدَّها التَّربا واستَوحِ مَنْ طَوَّقَ الدُّنيا بما وَهَبا
واستَوحِ مَنْ طبَّب الدُّنيا بحكْمَتَه ومَنْ على جُرحها مِن روُحه سَكَبا
وسائلِ الحُفْرَةَ المرموقَ جانِبُها هل تبتَغي مَطْمَعاً أو ترتجي طلَبا ؟
يا بُرجَ مفْخَرةِ الأجداث لا تهِني أنْ لم تكُوني لأبراج السَّما قُطُبا
فكلُّ نجم تمنَّى في قَرارته لو أنَّه بشُعاعٍ منكِ قد جُذبا
والمُلْهَمَ الحائرَ الجبَّارَ ، هل وصَلَتْ كَفُّ الرَّدى بحياةٍ بَعْدَه سَبَبا؟
وهل تَبدَّلْتَ رُوحاً غيرَ لاغبةٍ أم ما تزال كأمسِ تشتكي اللَّغَبا
وهل تخبَّرْتَ أنْ لم يألُ مُنْطَلِقٌ منُ حرّ رأيكَ يَطْوي بعْدكَ الحقَبا
أم أنتَ لا حِقَبلً تدري ، ولا مِقَةً ولا اجتواءً ، ولا بُرءاً ، ولا وصَبا
وهل تصَحَّحَ في عُقْباكَ مُقْتَرحٌ ممَّا تفَكرتَ أو حَدَّثْتَ أو كُتِبا ؟
نَوِّر لَنا ، إنَّنا في أيّ مُدَّلجٍ ممَّا تَشكَّكْتَ ، إنْ صِدقاً وإنْ كذبا
أبا العلاءِ ، وحتى اليومِ ما بَرِحتْ صَنَّاجهُ الشَعر تُهدي المترفَ الطَّربا
يَستنزلُ الفكرَ من عَليا مَنازلهِ رأسٌ ليمسحَ من ذي نعمةٍ ذنَبا
وزُمرةُ الأدبِ الكابي بزُمرتهِ تفرَّقَتْ في ضَلالاتِ الهوى عُصَبا
تَصَّيدُ الجاهَ والألقابَ ناسيةً بأنَّ في فكرةٍ قُدسيَّةٍ لقبا
وأنَّ للعبقريّ الفذِّ واحدةً إمَّا الخُلودَ وإمَّا المالَ والنَّشبا
من قبلِ ألفٍ لَو انَّا نبتغي عِظةً وعَظْتَنا أنْ نصونَ العلمَ والأدبا
على الحصيرِ .. وكوزُ الماءِ يَرفدهُ وذِهنُه .. ورفوفٌ تحمِلُ الكتبا
أقامَ بالضَّجَّةِ الدُّنيا وأقعدَها شيخٌ أطلَّ عليها مُشفِقاً حَدِبا
بَكى لأوجاعِ ماضيها وحاضرِها وشامَ مُستقْبَلاً منها ومرتقبَا
وللكآبةِ ألوانٌ ، وأفجعُها أنْ تُبصرَ الفيلسوفَ الحُرَّ مكتئِبا
تناولَ الرثَّ من طبعٍ ومُصطَلحٍ بالنقدِ لا يتأبَّى أيَّةً شجبا
وألهمَ الناسَ كي يَرضَوا مغبَّتهم أن يُوسعوا العقلَ ميداناً ومضطَربا
وأنْ يَمدُّوا به في كلِّ مُطَّرحٍ وإنْ سُقوا مِن جَناه الويلَ والحرَبا
لِثورةِ الفكرِ تأريخٌ يحدّثُنا بأنَّ ألفَ مسيحٍ دونَها صُلِبا
إنَّ الذي ألهبَ الأفلاكَ مِقولُه والدَّهرَ .. لا رَغَباً يرجو ولا رهَبا
لم ينسَ أنْ تشمَلَ الأنعامَ رحمتُهُ ولا الطيورَ .. ولا أفراخَها الزُغُبا
حَنا على كلِّ مغضوبٍ فضمَّده وشجَّ منْ كان ، أيّاً كان ، مغتصِبا
سَلِ المقاديرَ ، هل لازلتِ سادرةً أمْ أنتِ خجلى لِما أرهقتِه نصبا؟
وهل تعمَّدتِ أنْ أعطيتِ سائبةَ هذا الذي من عظيمٍ مثْله سُلبا
هذا الضياءَ الذي يَهدي لمكمنّه لِصّاً ويُرشدُ أفعى تَنْفُثُ العَطَبا
فانْ نَخَرتِ بما عوَّضتِ من هبةٍ فقد جنيتِ بما حمَّلتِه العصبا
تلمَّسَ الحُسنَ لم يمدُدْ بمُبصرةٍ ولا امتَرى دَرَّةً منها ولا حلبا
ولا تناولَ من ألوانها صُوراً يَصُدُّ مبتعِدٌ منهنَّ مُقتربا
لكنْ بأوسعَ من آفاقها أمداً رَحْباً ، وأرهفَ منها جانباً وشَبا
بعاطفٍ يتبنَّى كلَّ معتلِجٍ خفَّاقه ويُزكّيهِ إذا انتسبا
وحاضنٍ فُزَّعَ الأطيافِ أنزلها شعافَه وحباها معقِلاً أشِبا
رأسٌ من العَصَبِ السامي على قفص من العظام إلى مهزولةٍ عُصِبا
أهوى على كُوَّةٍ في وجههِ قدَرٌ فسَدَّ بالظلْمةِ الثُقْبينِ فاحتجبا
وقال للعاطفات العاصفات به ألآنَ فالتمسي مِن حُكْمِه هربا
ألآنَ يشربُ ما عتَّقتِ لا طفَحاً يُخشى على خاطرٍ منه ولا حبَبا
ألآنَ قولي إذا استوحشتِ خافقَه هذا البصيرُ يُرينا آيةً عَجبا
هذا البصيرُ يُرينا بينَ مندرِسٍ رثِّ المعالم، هذا المرتَعَ الخصِبا
زنجيَّةُ اليلِ تروي كيف قلَّدها في عُرسها غُرَرَ الأشعار ..لا الشهبا
لعلَّ بينَ العمى في ليلِ غُربته وبينَ فحمتَها من أُلفَةٍ نسبا
وساهرُ البرق والسُمَّارُ يُوقِظهم بالجزع يخفق من ذكراه مضطرِبا
والفجرُ لو لم يلُذْ بالصبح يَشربه من المطايا ظِماءً شُرَّعاً شُربا
والصبحُ ما زال مُصفرّاً لمقرّنَه في الحُسْن بالليل يُزجي نحوه العتبا
يا عارياً من نَتاجِ الحُبِّ تكرمةً وناسجاً عَفَّةً أبرادَهُ القشُبا
نعوا عليكَ – وأنت النور – فلسفةً سوداءَ لا لذَّةً تبغي ولا طرَبا
وحمَّلوكَ – وأنت النارُ لاهبةً - وِزرَ الذي لا يُحسُّ الحُبَّ ملتهبا
لا موجةُ الصَّدرِ بالنهدينِ تدفعه ولا يَشقُّ طريقاً في الهوى سَربا
ولا تُدغدِغُ منه لذَّةٌ حُلُماً بل لا يُطيقُ حديثَ اللذَّةِ العذِبا
حاشاك ، إنَّكَ أذكى في الهوى نفسَاً سَمْحاً ، وأسلسُ منهمْ جانباً رطِبا
لا أكذبنَّكَ إنَّ الحُبَّ متَّهمٌ بالجَور يأخذ منِّا فوقَ ما وَهبا
كم شيَّعَ الأدبُ المفجوعُ مُختضَراً لدى العيونِ وعندَ الصدر مُحتَسَبا
صَرعى نَشاوى بأنَّ الخَودَ لُعبتُهم حتى إذا استَيقظوا كانوا هُمُ اللُعَبا
أرتهُمُ خيرَ ما في السّحْرِ من بُدءٍ وأضمرتْ شَرَّ ما قد أضمرتْ عُقبا
عانَى لَظَى الحُبِّ " بشَّارٌ " وعُصبتُه فهل سوى أنَّهم كانوا له حَطبا

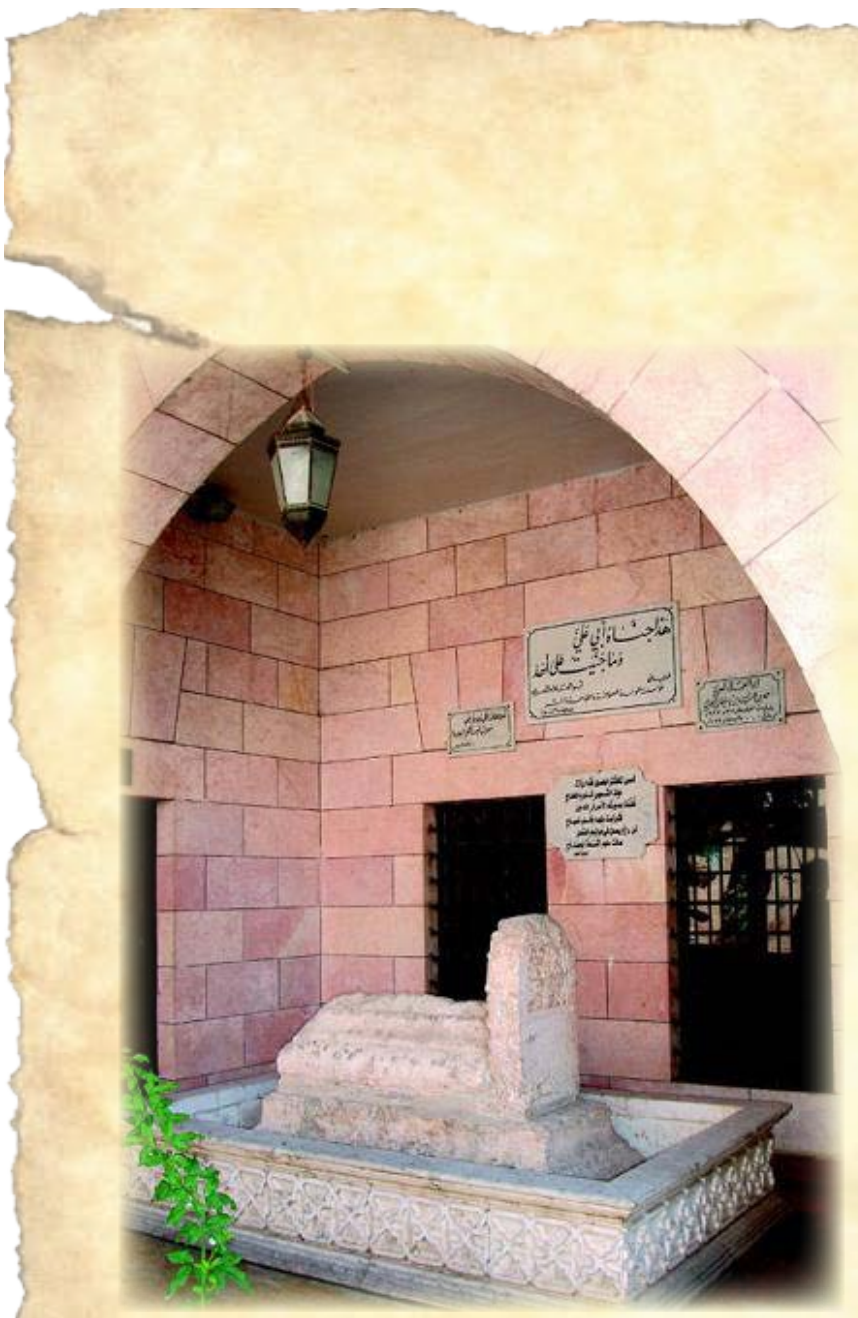

١٠ فلوس) السنة الثامنة العدد ١١٣١ رقم التلفون ٦٧٦٤

الرأي العام

جريدة يومية سياسية عامة
صاحبها ورئيس تحريرها محمد مهدي الجواهري
المدير المسؤول المحامي صالح نامي
مسجلة بدائرة البريد رقم ١٠٣

ثمن الاشتراك ويدفع سلفاً
في بغداد ثلاثة دنانير
وفي القطر ثلاثة دنانير ونصف
وفي الخارج اربعة دنانير
اجرة الاعلانات ١٥٠ فلساً في
العقد الواحد والاعلانات الدائمية
يراجع بشأنها الادارة

بغداد الخميس ٥ تشرين الاول ١٩٤٤ المصادف ١٧ شوال ١٣

جوهرة الجواهري
في مهرجان ابي العلاء المعري

لثورة الفكر تاريخ يذكرنا
بأن ألف مسيح دونها صلبا

القصيدة العصماء التي القاها الشاعر الكبير الاستاذ محمد مهدي الجواهري صاحب هذه الجريدة في حفلة افتتاح مهرجان ابي العلاء المعري بدمشق :

قف بالمعرة وامسح خدها التربا
واستوح من طوق الدنيا بما وهبا
واستوح من طبب الدنيا بحكمته
ومن على جرحها من روحه سكبا
وسائل الحفرة المرموق جانبها
هل تبتغي مطمحاً او ترتجي طلبا
يا برج مفخرة الاجداث لا تهني
ان لم تكوني لابراج السما قطبا

قبر المعري في بلدته معرة النعمان

وهل سوى أنهم راحوا وقد نذروا ... للحبِّ ما لم يجب منهم وما وَجبا
هل كنتَ تخلدُ إذ ذابوا وإذ غَبرُواو لم ... ترُضْ منْ جِماحِ النفس ما صَعُبا
تأبى انحلالاً رسالاتٌ مقدَّسةٌ ... جاءت تقوِمُ هذا العالَمَ الخَربا
يا حاقِرَ النبعِ مزهُوّاً بقوَّتهِ ... وناصراً في مجالي ضعفِهِ الغَرَبا
وشاجبَ الموتَ من هذا بأسهمِهِ ... ومُستمِنّاً لهذا ظِلَّهُ الرَّحِبا
ومحرِجَ المُوسِرِ الطاغي بنعمتهِ ... أنْ يُشرِكَ المُعْسِرَ الخاوي بما نهبا
والتَّاجُ إذ تتحدَّى رأسَ حامِلهِ ... بأيِّ حقٍّ وإجماعٍ به اعتصبا
وهؤلاءِ الدُّعاةُ العاكفونَ على ... أوهامهم ، صنماً يُهدون القُرَبا
الحابطونَ حياةَ الناس قد مَسخوا ... ما سنَّ شَرْعٌ وما بالفطرة اكتُسبا
والفاتلونَ عثانيناً مُهرّأةً ... ساءتْ لمحتطِبٍ مَرعى ومحتطَبا
والمُلصِقونَ بعرش اللّهِ ما نسجت ... أطماعُهم : بِدعَ الأهواءِ والرِيّبا
والحاكمونَ بما تُوحي مطامعُهم ... مؤّولينَ عليها الجدَّ واللّعبا
على الجلود من التدليس مَدرعةٌ ... وفي العيون بريقٌ يخطَفُ الذهبا
ما كان أيُّ ضلالٍ جالباً أبداً ... هذا الشقاء الذي باسم الهُدى جُلبا!
أوسَعْتَهم قارصاتِ النقدِ لاذعةً ... وقلتَ فيهم مَقالاً صادقاً عجبا
" صاحَ الغرابُ وصاحَ الشيخُ فالتبستْ ... مسالِكُ الأمر: أيُّ منهما نعبا "

أجللتُ فيك من الميزات خالدةً ... حُرّيةَ الفكرِ والحرمانَ والغضبا
مجموعةً قد وجدناهُنَّ مُفرَدةً ... لدى سواكَ فما أغنيننا أربا
فربَّ ثاقبِ رأيٍ حطَّ فكرتَه ... غُنمٌ فسَفَّ .. وغطّى نورَها فخبا
وأثقلَتْ مُتَعُ الدُّنيا قوادِمَهُ ... فما ارتقى صُعُداً حتّى ادَّنى صَبيا
بَدا له الحقُّ عُرياناً فلم يَرهُ ... ولاحَ مقتلُ ذي بغيٍ فما ضَربا
وإنْ صدقتُ فما في الناس مُرتكِباً ... مثلُ الأديب أعانَ الجورَ فارتكبا
هذا اليراعُ ، شواظُ الحقّ أرهفه ... سيفاً . وخانعُ رأيٍ ردَّه خشبا
ورُبَّ راضٍ من الحرمان قِسَمتَه ... فبرَّر الصبرَ والحرمانَ والسغبا
أرضى ، وإنْ لم يشأ ، أطماحَ طاغيةٍ ... وحالَ دونَ سوادِ الشعب أن يثبا
وعوَّضَ الناسَ عن ذُلٍّس ومَتربَةٍ ... مَنَ القناعةِ كنزاً مائجاً ذهبا
جيشٌ من المُثُلِ الدُّنيا يَمُدُّ به ... ذوو المواهبِ جيشَ القوَّةِ اللَّجبا
آمنت باللّه والنورِ الذي رسمَتْ ... به الشرائعُ غُرّاً منهجاً لَحِبا
وصُنتُ كَّل دُعاةِ الحقِّ عن زَيغٍ ... والمُصلحينَ الهداةَ ، العُجْمَ والعَرَبا
وقد حَمِدتُ شفيعاً لي على رَشَدي ... أُمّاً وجدتُ على الإسلام لي وأبا
لكنَّ بي جنَفَاً عن وعي فلسفةٍ ... تقضي بأنَّ البرايا صُنِّفتْ رُتَبا
وأنَّ مِن حكمةٍ أنْ يجتني الرُّطَبا ... فردٌ بجَهد ألوفٍ تعلكُ الكَرَبا

ثلاثة كتب تندرج في نطاق النثر ، والنثر الممتاز ، من الأنواع الأدبية في الأدب العربي ، ممَّا قرأته لحدِّ التاريخ الجاري ممهوراً بقلم معروف بن عبد الغني المُلقب بالرصافي ، واكتسابه لقبه هذا يعزى في حكاية مشهورة بين الأهالي ببغداد القديمة ، يسردونها في أسمارهم ومجالسهم بالأمس إلى أنَّ أستاذه محمود شكري الآلوسي الذي تتلمذ عليه وتعلم على يديه مبادئ القراءة والكتابة ، وأخذ عنه علوم القرآن واللغة والنحو ، وأطلعه على الشعر العربي ، فأعجب بفطنته ونباهته وسرعة حفظه ، وحصلَ ذات مرَّة أنْ استدلَّ أثناء درسه واستغراقه في محاضرته باسم المتصوف الإسلامي المدفون بجانب الكرخ في مقبرة خاصة بعد أنْ حيي في العصر العباسي الأوَّل وفارق الحياة بنهايته واسمه معروف الكرخي ، ولقيَتْ فصول حياته بمختلف أدوارها المتتابعة هوىً واستئناساً من لدنه بسماعها كلَّ مرَّة لدرجة استلفتتْ نظر هذا المجتهد الديني الذي يتحلَّق حوله الطلاب والمريدونَ ، يأتمُّونَ به ليسترفدوا معرفته وإلمامه بالأحكام الشرعية ، فعنَّ له أنْ يضفي عليه تسميته بمعروف الرصافي على سبيل الاقتران والتشبُّه بالمتصوف القديم في جلسة لا تخلو من الاستغراق في الدُعابة وتلطيف جانبه وإكرام شخصه .

مهدي شاكر العبيدي

أبو العلاء المعري بين معروف الرصافي وطه حسين

فأمَّا هذه الكتب الثلاثة التي انتهَتْ إليَّ بفعل المصادفات وعلى غير المتوقع ، لأنَّ المشهور المتداول في الوسط الثقافي هو ديوان شعره المرصود في غالبيَّة قصائده للقضايا الاجتماعية والسياسية ، وقليلٌ منها ينزع إلى تصوير عواطفه ومشاعر وجدانه حيَال الظاهرات الكونية والوجودية ونحوَ خلانه وأودائه وبثِّه إيَّاهم تذمُّره وسخطه على ما في الحياة من نقص واختلال في موازينها ومقاييسها ، ولا يفقه ما أثر عنه من كتابات نثرية غير رهط قليل من الباحثينَ والدارسينَ ، قلْتُ : إنَّ أسماء هذه المؤلفات الباذخة الرصينة تتمثل في الأوَّل : (الشخصية المحمدية) ، الذي احتوته مكتبة المجمع العلمي العراقي مخطوطاً في دفاتر مدرسية عدَّة ، ولا يعيره أمناء تلك المكتبة المتعاقبينَ لمبتغي الوقوف على آرائه بخصوص جهاد خاتم الأنبياء وخوضه معركته الظافرة في منازلة المشركين والانتصار عليهم ، إلا بعد مراجعات واستحصال موافقات جهات ذات شأن ولها رأيها وكلمتها في تسيير شؤون المجمع ، وذلك إشفاقاً وحرصاً على تماسك المجتمع وتجنيباً له عنَ الانحلال والتفكك ، لو تفشتْ بين أوساطه تجديفات معروف الرصافي ومفترياته وانتحاله المطاعن حول سيرة النبي الأكرم بين أهله وعشيره وتعامله حيال زوجاته ، على نحو ما اختلق من مسوِّغاتٍ ودواعٍ للضنِّ بإعارته إلا للقلة من ذوي الحفاظ وأهل الثقة ، وكذَبَ هذا المزعَم الأديب المعروف ذنون أيوب عبر مقالة ضافية نشرها بمجلة (الثقافة) ذات يوم من سبعينيات القرن الماضي ، أتى فيها على قصده مكتبة المجمع وطلبه من إدارتها إحضار مخطوطة الرصافي تلك ، ووضعها في متناوله حيث عكف على اجتلاء فصول وأقسام منها ، ومحَّصها ودققها متحرِّياً أنْ يقع على موضع منها يحتوي على الخبط والضلال والحمق والشطط ، ويستدلَّ منه على مروقه وسوء فهمه ، أو انتوائه الإساءة المقصودة والتزييف المتعمَّد ، وتحريف الشواهد والوقائع ، فما صحَّ عنده إلا رأي مؤلفه في شخصية النبي المرسل من جهة كونه طاهر الذيل وعفيف النفس ومستقيم الأثر ، وأنَّه ـ أي الرصافي ـ لا يجل سواه ويتهيَّبه أو يسوِّي بينهما بنفس القياس والدرجة ، غير أنَّني بوغتُّ بسيرورته مطبوعاً بدار نشر بألمانيا ، وتوارَدَتْ إلى (بسطيات) شارع المتنبي ببغداد نسخ منه (معمولة) بطريقة الاستنساخ ، ومعتنى بتجليدها وتغليفها والإبقاء على عين التصميم الخارجي على شاكلة يتخفى بها التقليد ولا يكاد يبين ، ولعلَّ هذا المشهد الثقافي المتَّسم بالانفراج وانتفاء الحظر على كلِّ مطبوع متوجَّس خيفة من أثره في الجماعة ، هو من نواتج الاجتياح الأمريكي لربوع البلد وتعطل العمل بالقوانين التي لا ننكر تزمُّت بعضها وتحفظه أكثر من اللازم وخطأ تقديره للجائز وغير الجائز وعدم تمييزه بين النافع والضار في أحايين كثيرة ، أمَّا كيف انتهَتْ المخطوطة إلى دار الجمل الألمانية فعلم ذلك غير مجهول إذا عرفنا أنَّ من أصحابها واحد من أنجال المرحوم كامل الجادرجي وصلة هذا الأخير بالرصافي من الحميميَّة والوثاقة بحيث نعته بالخيام ، وشاد بأفضاله عليه في فواتح أسفاره واعترف بإعارته بعض المؤلفات التي يقرأها ويتدارسها من مأثورات اللغة التركية ، فقد قضى الرصافي وخرج من الدنيا بلا ثروة ولا مكتبة .

والسفر الثاني ، هو : (رسائل التعليقات) الذي ترك دوياً في المحافل الأدبية والفكرية ، وريمَ جرَّاءه بالجحود ومجافاة الشريعة لقوله بوحدة الوجود وتستوي في منظور الربِّ المتصرِّف بمصير الأكوان وما فيها من الخلائق والموجودات ، سائر الفضائل والرذائل ، والمحاسن والمساوئ ، بشتى صنوفها من الخير والشرِّ والخطأ والضلال ، والطهر والدَنس ، وأنَّ المتصوِّفة هم أبعد عن الزهد وعيَاف الملذات ، وأنَّ محمداً كان قبلتهم وقدوتهم التي يأتمُّونَ بها ويحتذونها في سلوكهم ، وسَوغ مثل هذا الكلام يحتاج عقليات ومدارك معيَّنة خاصة لا تتوفر في محيط يمعن في انغلاقه وحجبه تفتح الأفكار والأذهان ، وصدرَتْ طبعته الأولى زمن الحرب العالمية الثانية بعناية الشاعر الراحل نعمان ماهر الكنعاني الذي اعتذر للقرَّاء عن توانيه في إضافة رسالة إليها كتبها الرصافي بعنوان (على باب سجن أبي العلاء) ، في مساجلة طه حسين ودحض ما سجَّله من وجهات نظر متباينة حول فلسفة المعرِّي وموجبات عزلته واستنفاده جُلَّ أوقاته في صياغة أشعاره وسكبها في قوالبَ مخصوصة بأوزانها وقوافيها أسماها النقاد والدارسونَ في أزمان تالية بعد أنْ تأمَّلوا طريقته وتلمَّسوا آثار الجهد في تصيُّد رويِّها ، أو قطعوا بجريها عفو الخاطر في الأقلِّ القليل منها ، بأنَّها من قبيل لزوم ما لا يلزم ، وهذه الرسالة هي الكتاب الثالث الذي انهمكتُ في مطالعته بطبعته الثانية الصادرة في عام ٢٠٠٣م ، عن دار المدى بدمشق بالعدد (٢٩) ، ضمن سلسلتها (الكتاب للجميع) ، بعد نفاد طبعته الأولى بمطبعة الرشيد في بغداد عام ١٩٤٦ ، وبتقديم كاتب مثابر ومنصف يُدعى : محمد علي الزرقا .

ولنرجئ النظر في هذا الكتاب أو هذه الرسالة ، وتقييم سابقة مقدِّمها إلى إنباه الشاعر ودور شعره في إذكاء العزمات ، وتأجيج الوعي في أوساط الجمهور كي نصل من الكلام ما انقطع بصدد (رسائل التعليقات) التي استتبعَتْ فورَ صدورها عداوات ومخاصمات استهدَفَ بها مؤلفها أدباء من خارج البلاد كان أبرزهم دريني خشبة ، الذي هجر بحثه وترجمته لملاحم اليونان وأساطيرهم ومسارحهم ، وانصرف للتشكيك بعقيدة الرصافي الذي هو بالأصل رجل دين مفعم النفس والوجدان بالحفاظ والغيرة عليه ، ويتصدَّى كلُّ لدمغ مَن يفتئتُ عليه متطاولاً وتبكيته ، ونشَر دريني خشبة ردَّه ونقضه لتخريجات الرصافي عبر مقالات متتابعة بمجلة (الرسالة) المصرية التي حفلتْ بأنَّ ثلاثينيات القرن السَالف خصوصاً بالكتابات المزدهرة بمحتوياتها الطائلة لأغلب كُتَّاب مصر والعالم العربي الأثبات ، واستدعَتْ من الرصافي نفسه أنْ يصاولها وينبري لتفنيدها والإيماء لِمَا تنطوي عليه من تغرُّض وتسافه وتخرُّص ، جمعها من بعد مريدٌ ثانٍ للرصافي ، هو : الأستاذ عبد الحميد الرشودي ، واحتفظ بها حتى عام ١٩٥٧م ، وسلَّمها إلى خادمه ـ عبد صالح ـ الذي أزمع السفر وقتها إلى بيروت لطبع كتاب (رسائل التعليقات) طبعة ثانية وألحق بها مساجلة دريني خشبة ومداخلته للشاعر المتفلسف إذا نظرنا للانشغال بوحدة الوجود على أنَّه من النظر العقلي اللصيق الصلة بالفلسفة ، ومعها بالطبع جوابات المؤلف الذي تبدَّى فيها غير هيَّاب وأنَّه على استعداد لمنازلة خصومه ومخالفيه في أنظاره وتوصُّلاته ، ومستطرداً بعد أنْ ثبت لديه بالدليل أنَّ المداخلة خرجَتْ عن نطاقها إلى الشتم المنكر والذمِّ القبيح ، يقول الرصافي : ((من الجائز شرعاً أنْ أقابل هذه الشتائم بمثلها ، والحرمات قصاص ، وليس الأستاذ بمعجزي أنْ أقابل هذه الشتائم صاعاً بصاع ، إنْ نثراً فنثر ، وشعراً فشعرٌ ، ولكن كما قلتُ آنفاً أكره النزال في حومة لا يخرج فيها الغالب إلا وهو ألزم من المغلوب)) .

يغلب على رسالة معروف الرصافي (على باب سجن أبي العلاء) ، مخالفته لعموم استنتاجات الدكتور طه حسين وتخريجاته واستنباطاته من تعليمات فيلسوف المعرَّة التي توصَّل إليها وشامها للسلوك ومعاملة الناس بادِّراع الحذر والاحتراس من كيدهم ومكرهم ، فأوقعه ذلك في التشاؤم وورَّطه في اعتزال مجالسهم ، مضيفاً إلى سجنه بفقد ناظره وكونه أعمى البصر ـ ممَّا لا دخل له فيه أو هو خارجٌ عن إرادته ـ سجناً ثانياً بلزوم بيته وتواريه عن الخلائق ، وكذلك نقض ما سطرَّه من آراء وانطباعات بصدد (اللزوميَّات) وأسلوب نسجها ، وما تجشَّمه من نصَب وإرهاق وحمل على نفسه في اختيار رَويِّها الموافق لغرَضها والوقوف عند قافيتها الملائمة التي قد

تخادع القارئ وتوهمه بكونها غير متكلّفة وجاءَتْ لتحلّ محلها المناسب لا بحسب اعتمال الشاعر لها أو افتعالها أو اقحامها ، وبالجملة إنّه يدحض جميع ما ورد في الكتاب ذاك وشُحنَ به من أفكار ومُدَّعيات ، غير عازف مطلقاً عن الثناء وامتداح مساعي طه حسين ودالاته الكثيرة على ازدهار الحياة العلمية والأدبية ، ويعرب عن احترامه وانتفاعه بعلمه وإعجابه بأدبه ، ويبلغ درجة من التصاغر بعد أنْ سحره طه حسين وخلبه بتدقيقه ومحاكمته النصوص ونظره فيها بإمعان ، فيقرُّ بتطفله على موائده لا غير ، لكنْ دون أنْ يقلع عن محاججته الذكية له مرتكناً إلى أسانيده ودلائله ، ومستنداً إلى براهينه وحججه الدامغة ، ومتوسِّلاً لذلك بأسلوبه البارع وبيانه الرصين ولغته الموشّحة بالرشاقة والطلاوة إلى حد يغري بسلكها في عداد النتاجات الأدبية المُزدهرة المعهودة في العقود الأوائل من القرن العشرين ، حين نشط نبغاء الكُتّاب المصريين في ملءِ أنهار الصحف بموضوعات أدبهم وخطرات وجدانهم ومحصِّلات تفكيرهم ، وتأمُّلهم في أوضاع الحياة وطبيعة الاجتماع ، أمثال : عباس محمود العقاد ، ومصطفى صادق الرافعي ، وإبراهيم عبد القادر المازني ، ومحمد حسين هيكل ، وإسماعيل مظهر ، وزكي مبارك ، ومصطفى عبد الرازق ، وعبد الواحد خلاف ، وغيرهم .

وقبل أنْ نجملَ مؤاخذات الرصافي في رسالته على طه حسين وسدِّه بوجهه جميع المخارج والمنافذ والأبواب ليستمسك بنظرته ويصرُّ على اجتهاده ، دعونا نقف بعض الوقت عند مقدِّمتها التي أبقتها الجهة الناشرة على حالها دون أنْ تعدوها إلى التعريف بكنه هذا الموغل ببحث مدرسي عن شاعره الأثير وجهاده لخلاصٍ أمته العربية من العسف العثماني وجور الحكومات في كل بلد منها ، ظفر بجلاء الغاصب المحتل عن ربوعه .

بقي شيءٌ واحد هو أنّني كنتُ في عام ١٩٤٦م ، غداة صدور الكتاب أجوز مرحلة الدراسة الابتدائية ، ويروضنا معلمونا على استظهار بعض قصائد الرصافي المستفيضة في مشكلات الأسرة وصعوبات العيش ، وتتجاوزها إلى وصف حال اليتيم والأرملة المرضعة ، وتصويره لغروب الشمس عين الوقت لا غير ، ولم أكن سمعْتُ بدارس يُدعَى بـ : محمد علي الزرقا ، مع غرابة هذه التسمية في المجتمع العراقي ، وأتصوَّر أنّني قرأتُ هذا الاسم مزدانة بأحرفه صفحة كتاب مدرسي مقرَّر إلى جانب رصفائه المكلفينَ كلهم بتأليفه ، وأظنُّه من جمهرة المربينَ السوريينَ الذينَ اشتغلوا بتعليم فتية العراق يوم ذاك ، ومقدِّمته توحي بتأثره بالأفكار التقدُّميَّة التي عمَّت البلاد في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وذلك من خلال إلحافه في التمييز بين الأدباء المتزجينَ بالشعب والمتبنينَ آماله ومطامحه في الخير والعدل ، وبينَ مَن ترفعوا عن النظر لواقعه السيئ وأحجموا عن معالجة مشكلاته ومآسيه ، وتواروا بعيداً ببرجهم العاجي ، بحسب ما ساد المحافل الأدبية حينها من هذه القالة الوهمية التي ليس لها وجود أيضاً على صعيد الواقع ، سوى أنْ يجبن الكُتّاب عن مصارحة المتصدِّرينَ والمهيمنينَ على مقدَّرات الشعب بتردِّي وضعه المعيشي ، وينكصوا عن المجاهرة بافتقاده القوَّة الدافعة لإنعاش حياته ألا وهي الحرية .

أمَّا بصدد ما باينَ فيه الرصافي وناقض طه حسين في آرائه التي يدين نحوها بالاحترام الذي لم يصرفه عن تحرِّي الحقيقة وابتغاء الصواب ، فهي كالآتي :

١ . يخال الرصافي أنَّ أبا العلاء المعري هو أوَّل مَن تعمَّد التزام ما لا يلزم في الشعر ؛ ولا عبرة بقول طه حسين بكونه مسبوقاً بمحاولات غيره من الشعراء وتجريب قابليَّتهم وتمكنهم من نسجه وفق هذا المنوال بأنْ يجيء كلّ بيت من القصيدة مبنياً على قافيته ، بل جاءَتْ قافيته مبنية عليه ، وما حصل من إطلاع (كثير عزَّة) بشواهده التي لوَّح بها للتدليل على إلزام نفسه بهذا القيد وترسُّمه ، إنَّما جاء عفوا واتفاقاً .

٢ . يرى عميد الأدب العربي أنَّ (اللزوميات) عملٌ توخَّى منه رهينُ المحبسين ملءَ أوقات فراغه ، وهي نتيجة العبث واللعب بالألفاظ لا الكد والجهد ؛ ويظنُّها الرصافي مستعانة بها من قبل ناظمها لإفحام أنداده ومجادلتهم بكونه أحفظ لشوارد اللغة وأعلم بأسرارها ووجوه استعمالها ، وأنَّهم لا يدانونه في ملكته البيانية ولا يقاربونَ شأوه .

٣ . يقول طه حسين بأنَّ فيلسوف المعرَّة كان يجهد نفسه في إيجاد مفرداته ، ويتعب في رصفها وسبكها ، ويشقُّ على نفسه في ذلك ؛ ويقول الرصافي بأنَّ في سعة حفظه وقوَّة ذاكرته وغزارة علمه ما يسعفه وقت ما يشاء لاستخدامه في صنعته الأدبية من الألفاظ اللغوية ، فليس ثمَّة نصب يتحمَّله ومشقة يعنو لها ؛ فأنت ترى أنَّ المغامز الرصافية حيال العميد المتمرِّس بآداب البحث من الخفاء والدقة ، بحيث تستعصي ملاحقتها وتحديدها والإمساك بها .

٤ . يحسب الدكتور طه حسين أنَّ الجيِّد من شعر (اللزوميات) قليل ؛ بينا يعتقد الرصافي أنَّ أكثر من نصفها تمتلك ألفاظه الأسماع بفصاحتها ومعانيه النفوس ببلاغتها ، وإنَّ إيغالَ ناظمها بصناعته اللفظية لا يؤخذ بالحُسبَان ، فأرجح الظنِّ أنَّه ورد عفواً ويقبله الذوق لسهولته الممتنعة وطلاوته المحبَّبة .

٥ . اجتهد العميد بزعمه أنَّ أبا العلاء ابتغى استثارة إعجاب الناس بتصرُّفه باللغة وتطويعها لِمَا يروم الإفصاح عنه وإبلاغه من خطرات ، ممزجاً ذلك برغبته في تسلية نفسه والتفريج عن كربته وغمومه وإظلام حياته من خلال معاناته العذاب والرَهَق ، وإكراه الآخرينَ بالتالي على الاعتراف بتفوِّقه وتميُّزه وتمحيضه إكبارهم ؛ وقد حاول الرصافي جاهداً أنْ يثبتَ خطل هذا الافتراض ، على أساس أنَّ صاحب قصائد (اللزوميات) إنسانٌ متجرِّد من كلِّ مطمع ومأمل حتى في الشهرة التي يصبو إليها كلّ صاحب قلم في كل زمان .

٦ . أستطيع استخلاص فائدة وجدوى من تعقب طه حسين في ما خاله وحسبه هنات وزلات في وصمه أبا العلاء واستكثاره عليه إمعانه في العبث وارتجائه تسلية نفسه وملء فراغ أوقاته والهروب من مشكلاته والتهوين من ضغط ظروفه ؛ ويدحض الرصافي هذه الفرضية بعد أنْ يسجِّل للمعرِّي سبقه الأقران في حلبة البيان ، قلتُ : يرفض هذا الزعم بدعوى أنَّه أراد أنْ يتحدَّاهم ، برغم وقوعه في التكلف اللفظي أحياناً ، أنْ يأتوا بمثل صنيعه ، فتوخِّي التسلية هنا مرفوض في ملته ، والانغماس في العبث معدوم ومحال أنْ يعنَّ له ببال .

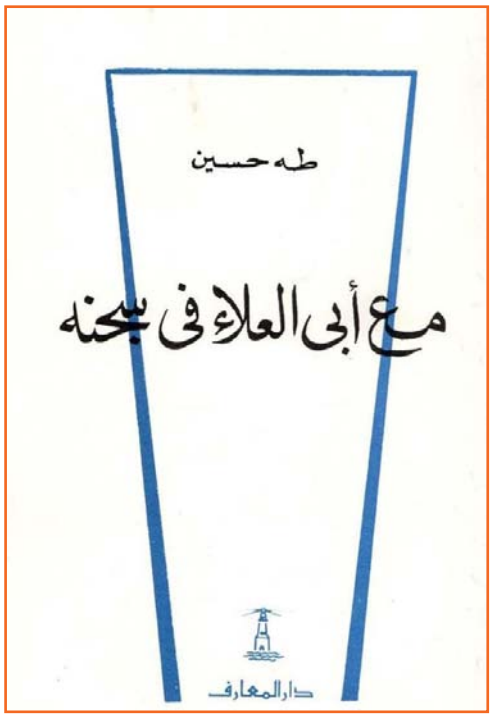

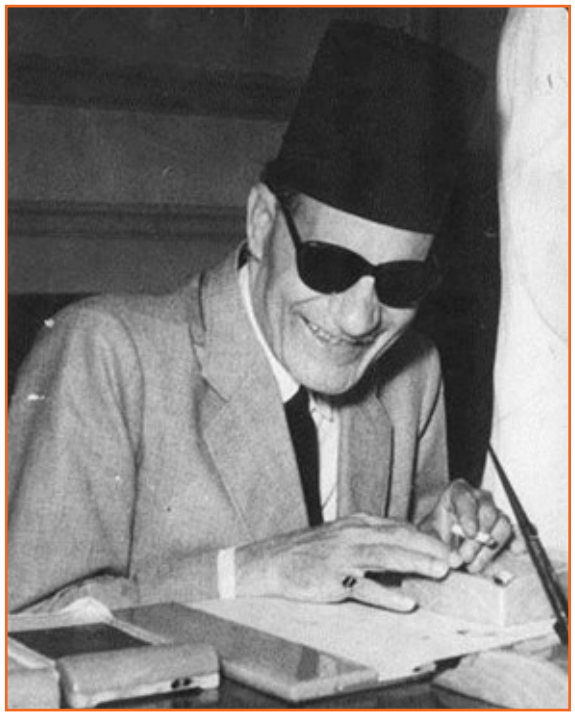

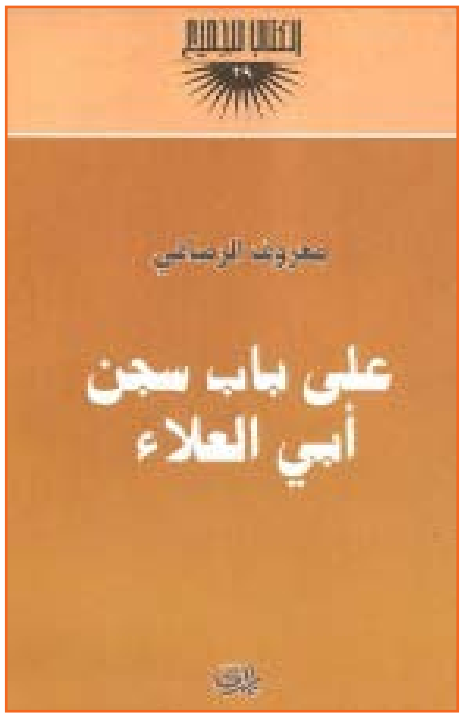

٧ . يغرق الرصافي في المتعارف بين أوساط البلغاء من تكرارهم أداء معانيهم المتوارثة والمشتركة بينهم مع طروء تحوير عليها وتحريف فيها بالزيادة أو النقصان في صوغ العاطفات والموحيات ، ويستلفتُ نظره وتقديره لِمَا ينجم عن التكرار في حالة جريه على وتيرة واحدة من سأم وملالة ، ويستثني منه القرآن الكريم الذي بتأثيره في نفوس قارئيه وسامعيه مدين لهذا التكرار ، وقد تقاسمُه في ذلك بعض الآثار المكتملة والمتوشِّحة برصانتها فلا تبعث على السأم والملل نتيجة تكرُّر شيات منها ، فيخلص إلى القول بأنَّ التكرار علىً إطلاقه غير صحيح ؛ خلافاً لِمَا يتبنَّاه العميد من رأي حوله .

×××

هذه هي باقتضاب واختصار وإجمال بعضُ دلائلَ الرصافي علَى خطالة رأي طه حسين في تقييمه لوضعيَّة أبي العلاء في سجنه ، وبعبارة أخرى : إنَّه يرفض تخريجاته ، بل لا يقبل الكتاب أصلاً ، لولا أنَّه يتوسَّل لبغيته بأدبٍ جمٍ ودماثةٍ ملحوظة ورصانة خلقية .

ويُلحق الرصافي بكتابه هذا مقالة جيِّدة الإنشاء مكتملة الأسباب والعناصر مستوفية الشروط وخصائص المقالة التي ينوي كاتبٌ ما ــ أيُّ كاتب ـ التعقيبَ على ما أتخمَ به من آراء وتضمَّنه من خطرات مؤلّفٌ ثانٍ لأبي العلاء ، هو : (الفصول والغايات) ، الذي زعم غير واحد من الكتبة أنَّه ما كُتب وما ألِّف إلا لغرض معارضة القرآن الكريم في رصف ألفاظه وتنميق عباراته ، وشكك الرصافي في ذلك ، مستبعداً انبراءه لمضاهاة القرآن المجيد ذي اللغة الآسرة والتعبير المُحكم والصياغة المتفننة والأداء المتناهي في السحر والبُهر والإعجاز ، علماً أنَّه توفَّر على تنسيقه وتأليفه مع (اللزوميات) بعد أوبته من بغداد التي هجرها متذمِّراً وساخطاً مستاءً من أطباع بعض الناس فيها ، مع أنَّه لم يخالط غير أضرابه من الفضلاء ومَن على شاكلته ممَّن يعرفونَ في تعاملهم مع الآخرين إلاً وذمَّة . ليستعرض بالتالي وقفة على موروثٍ لأبي العلاء من مأثور الأدب الرفيعِ والحكمة العالية ، وقفها رجلٌ أرمنيٌّ محبٌّ ومشغوف بالفلسفة العلائية ، هيمانٌ بفنِّه الرائع وسيرته المتفرِّدة ، يدعى : (أويديك إسهاقيان) ـ المولود بأرمينيا سنة ١٨٧٥م ــ الذي ساح في بلاد الغرب واحتفل به مواطنوه لبلوغه الستين من العمر ، وذلك بمدينة (أروان) عاصمة الجمهورية الأرمينية ، بعد أنْ صاغ ملحمته الشعرية (عروج أبي العلاء) باللغة الأرمنية ، والتي نقلها إلى عربيَّتنا أديب سوري ، هو : خير الدين الأسدي ، بمعاونة أرمني آخر ، هو : (بارسيخ تشتويان) ، وهذه الملحمة تشتملُ تعرية وتقريعاً لزمننا وكلِّ زمن تستشري فيه مظالمُ الأقوياء واستبدادهم بالضعفاء ، ويختلُّ القياس فيتوارى أصحاب العقل وينكفئونَ في عزلتهم مؤثرينَ صونَ ذواتهم من العَنتِ والتوقح والتساف.

البياتــي ومحنــة أبي العــلاء المعري

الدكتور حسن الخاقاني

امتحـن ابو العـلاء بالعمى صغيرا فأثر فيـه كبيرا،وبدا علـى شعره وفكره ، لكـن قصيدة (محنة ابـي العلاء)( ) لاتدور حول محنـة عماه ،بل دارت حول محنة اخرى هـي مقارعة رموز عصره ، امـا عماه فينزوي ليلبـي حاجات للنص مثل استحضار العصر الماضي ورموزه .

يقدم المقطـع الاول منذ عنوانـه (فارس النحاس) رمـوز العصـر التـي تجتمع حول دلالة الموت المعنوي :

هذا بلا امس وهذا غده قيثارة خرساء
داعبتهـا ، فانقطعـت اوتارهـا ولاذ بالصهباء
وذا بلا وجه ، بلا مدينة ، وذا بلا قناع
اشعل في الهشيم ناراً وانتهى الصراع
وذا بلا شراع
ابحر حول بيته وعاد
حياته رماد
وليله سهاد
ياموت! يا نعاس!
لوركا ونور العالم الابيض في الاكفان

فقد ازدحمت نماذج تمثل الموت ، أي الانقطاع عن ممارسة الحيـاة المبتغاة ، اذ ظهرت ملامح سندباد العاجز ، وظهر لوركا رمز المـوت المتكرر ، وصولاً الى الرمز الاسطوري الذي يمثل الموت :

وفارس النحاس
في ساحة المدينة
تجلده الرياح
تنوشه الرماح

يجمـع المقطع الثـاني (العبـاءة والخنجـر) التفيضين ، ويرقب ما ينتج عن اجتماعهما ، وذلك هو اجتماع الشاعر – الصوت النقي – بالامير رمز الاستبداد والدنس :

شربت من خمر الامير ، ورأيت في نهار ليله النجوم
اكلت من طعامه المسموم
اصبت بالتخمة والحمى وبالضجر
اصبحت في بلاطه حجر
ليلاً بلا سحر
قيثارة مقطوعة الوتر
عباءة بالية ، مسمار
صفراً يدور في الفراغ ، الة تدار

وهذا يشبه ما حصل للحلاج في نص سابق حيث العلاقة الازلية : الاستبداد يلغي الإخر ، ويطوعه لمصلحته.

يقـدم المقطـع الثالـث رمـزاً اخـر مـن رمـوز المـوت هو (المغنـي) في علاقة مختلة بالامير ، فيكون مصيره الموت اذ تنبـأ بمستقبل الامير ، ويقـدم الموت بصورة ايحائية مستخلصة من مجموع الافعال الدالة عليه :

فانتفض الامير ثم ضحكا
وقال للجلاد شيئاً وبكى
فاصطفقت واغلقت ابواب
وانقلبت انية الطعام والشراب
وسكت القيثار
وانطفأ القنديل ثم اسدل الستار

والنمـوذج الاخـر للمـوت يقدمـه المقطع الرابـع ، حيث الضحية هـو (الشاعر) في علاقته المختلـة بالامير ايضاً ، وحيـث الحاشية المنافقة التي يزدحم بها مجلس الامير الـذي يذكـر بذلـك المجلس الـذي اردى المتنبـي في نص سابق :

مجلسه كان يعج بدواب الارض والهوام
من كل صعلوك شويعر ، دعي ، داعر نمام
كان – اذا ما انشدوا اشعارهم – ينام
مفلطحاً ومتخماً
وكلما
انشد منهم احد تململا
وقال لا!
– مولاي ، هل يخفى القمر؟
ويغضب الامير

ويصفع الشاعر ، فالقمر
يغيب كل ليلة في صفحة الغدير

يبقـى ابو العلاء وحده ، متميـزاً من كل هذا الزحام حين يتجه اليه الخطاب فجأة هاجياً ذلك العصر ورموزه :

كان زماناً داعراً ، يا سيدي كان بلا ضفاف
الشعراء غرقوا فيه وما كانوا سوى خراف
وكنت انت بينهم عراف
وكنت في مأدبة اللئام
شاهد عصر ساده الظلام

يطول النصـ ، لاهتمامه بهجاء العصـر ورموزه ، وهي رموز تتكـرر : كالضفادع والامـير ، والحاشية المنافقة ، وقد اصبحـت هذه من الثوابت التي يكرر البياتي ذكرها في النصـوص التـي تعالـج قضايـا متشابهـة من حيث الغاية كعـذاب الحلاج وموت المتنبـي ، لتنتهي بانتصار الضحيـة ، او الامل في انتصارهـا في المستقبل ، او بعد الـف سنـة ، وهو امل يرجـع الى ايمـان البياتي بحتمية انتصـار الحيـاة مهما طـال صراعهـا مع المـوت ، ومهما كانـت رمـوز المـوت قويـة ، لكن هـذا الامـر كان مرتبطاً بمعطيـات اصابها التغيير الجذري بعـد عقود من السنين ، فتغـير معهـا ايمان البياتي ايضـاً ، ولم يصمد لفروض الزمـن الجديـد. اذ يظهر نص متأخر هـو : (سجون ابي العلاء)( ) وقوع البياتي تحت هيمنة الموت ، وقد دنا منه كثيراً ، ليفقد ابو العلاء ، كل قدرة على الرفض والمقاومة ، او التمسـك بفكرة : (ان الارض تـدور) التي كانت رمز انتصـاره في النص السابق ، فيـؤول في هذا النص الى التسليـم بسطوة عدوه عليه ، ويكون سجين ذاته قبل ان يكـون سجين عماه ، ولتكثر عليـه السجون لتكون جزءاً من عنوان النص :

الاحمر والاسود
لصان اختبأ
في اكواخ الطين
وفي قصب الانهار
انهكني هذا الزمن الدائر
في اجراس الماء
من يروي جسدي
لأطوف به حول الكعبة
أدفنه في جبل (التوباد)
فلعل نسور الفجر الدامي
تأكله
وتبقي بعض عظامي
طلسماً لطفولة اعمى
ضيّع في باب الله
سحر الالوان

يمكن ان يكون (الأسود) دالاً على (العمى) لكن ابا العلاء تجاوز لون عماه ليحتفي بالبصيرة التي يفتقدها غيره ، فهو بها يبصر غير ما يبصره سواه :

في ليل معرة اجدادي
ولدتني امي اعمى
كنت ارى من بين اصابعها
سفناً ترحل نحو كواكب اخرى
ولصوصاً يحكم بعض منهم بغداد
وممالك اخرى
ماتت قبل ولادتها
كنت ارى امي شاحبة
في الفجر تصلي
وتنادي اشباح الموتى في غرف الدار

فلقـد احاط المـوت بالبصـر والبصيرة ، وغمـر وجوده حـركات النص ، حتى ليصير البيـت معه مقبرة هي رمز للعالم الانساني اجمع :

في حفرة موتي
في وحشة بيتي
كان النمل يروح ويغدو
مثل بناة الاهرامات
ليجمع من كسر الخبز طعاماً
لشتاء قاس
اعلام ليلي وحشته اقتربت
يتهامس في لغة اعرفها
في بيت الاموات
الأسود والأحمر لصان
سرقا مني (الغفران)

يمثـل البيت العالم الاصغر الـذي يعيش فيه ابو العلاء ، ثم يتسع ليشمل كل ما يحيط به من العالم ، لكنه لايكتفي بهـذا حتى ينشـر رؤيتـه للموت وقـد امتـدت في المكان والزمان البعيدين ، او التاريخ بكل ابعاده ، بتحريك قوة رمز (الأحمر) :

من صحراء الربع الخالي
حتى تدمر
اجدادي تركوا خيط دم
واكتشفوا البعد الخامس للموت
وروح الليل
ولاتـكاد تجـدي فـورة الرفـض وقـد حاصـره الاسـود والاحمـر ، فهـي لاتعـدو ان تكـون اسئلة يائسـة يغلبها اليقين بالموت :

قانون ازلي ام ماذا؟
موتي في كل مكان
وقبور يتصاعد منها الهذيان
من يشعل ناراً
في هذا الليل الموحش
من يصرخ في غرف الدار
فلتطلقني يا ابتي من قفصي
فسجوني كثرت
وعذابي طال

يتحـول هـذا السـؤال الى استسلام عندمـا يتراجع بين يدي يقين الموت القادم، لكنه سؤال الغربة والقلق :

مابين الوردة والسكين
روحي قطرة ضوء تخبو
وانا اخبو معها
سنموت كلانا في هذا المنفى الملعون
فلماذا يا أبتي
أنجبت حصاناً غجرياً اعمى
لايعرف في هذا الصقع الشاسع
اين يموت؟

لقـد تحول المنفى – الملكـوت الى : المنفى الملعون ليحدث القطيعـة مـع امـل الحيـاة وليغلب المـوت عليهـا ، وهذا امـر يرجع الى البياتـي بعد ان جعل ابا العـلاء الوسيلة لذلـك ، وهو ما يظهر ابا العلاء رمـزاً مختلفاً في النصين ، اذ غلـب الاندفـاع في الحيـاة ، والمقاومـة والرفـض ، والوقوف بوجه اجماع المجتمع على النص الاول ، فكان نصـاً متفائلاً في نهايته ، مستنـداً الى ما ابداه من هجاء لعصـره ليتفـوق عليه ، امـا في هذا النصـ ، فقد بدا ابو العـلاء فاقد القدرة على المقاومة والرفض برغم احتفاظه ببصيرتـه الحيـة التـي ارتـه الحقيقـة لكنـه لم يستطع الاندفـاع في اقرارهـا ، فقـد وهنـت قـواه ، وهـي قوى البياتـي في حقيقـة امرها، لذا استكان الى الموت موقناً ، مستسلمـاً ، وقـد خالطـه شعور الغربة والمـوت فيها اذ لا امـل لـه في سواهـا ، وقـد كان الامر كذلك حقـاً ، وهنا نلحـظ ،بعد ان راينـا في رمز الحـلاج ، ان الرمز لاينمو ولايتحـول ، بل يتغير تغـيرا نوعيا في كل نص وفي كل مرحلـة ليدلنا على ان الشاعر لم يكن يعي حياة الرمز بل كان يستعمله كما يستعمل أي اداة او اية وسيلة ليس لها نـوع او شخصية وهذا يدلنا عليـه متابعة الرمز الواحد في نصوصه .

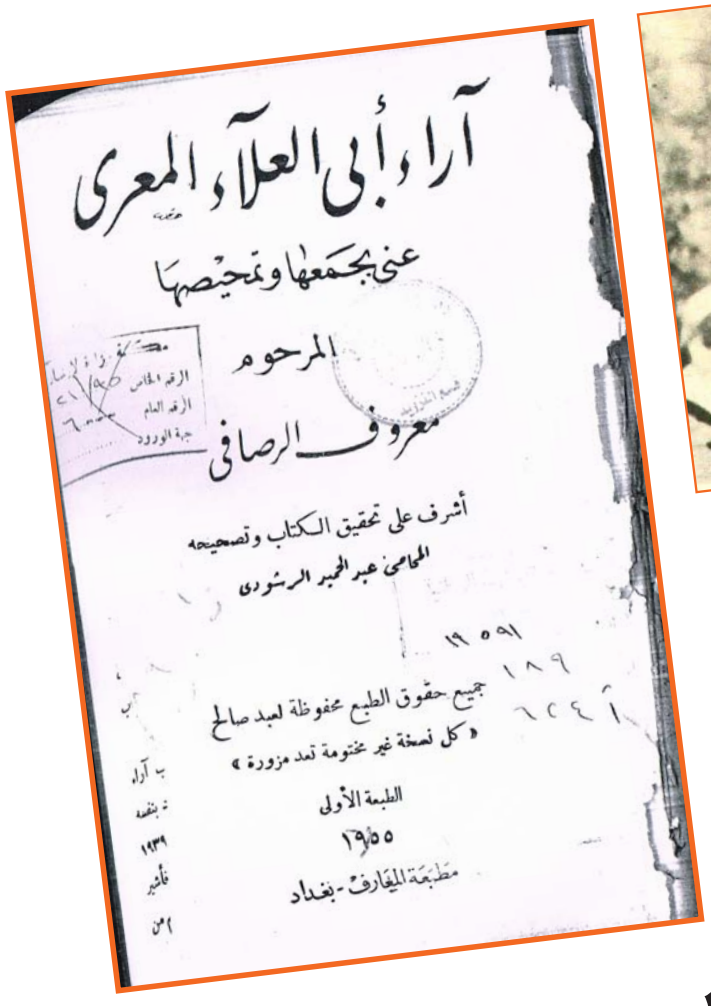

آراء أبي العلاء المعري
عني بجمعها وتمحيصها
المرحوم
معروف الرصافي
أشرف على تحقيق الكتاب وتصحيحه
المحامي عبد الحميد الرشودي
جميع حقوق الطبع محفوظة لعبد صالح
«كل نسخة غير مختومة تعد مزورة»
الطبعة الأولى
1955
مطبعة المعارف - بغداد

في اوائل القرن الخامس للهجرة اي قبل تسعة قرون تقريبا كان في معرة النعمان رجل عربي المحتد يسمى احمد بن سليمان، ويلقب بأبي العلاء. كان هذا الرجل كفيف البصر، ورعا زاهدا في الدنيا، مبتعدا عن الناس، ملازما لبيته متقشفا في المطعم والملبس، تاركا لجميع الملاذ الجسمانية حتى لقد مكث خمسا واربعين سنة لم ياكل اللحم تريضا وتزهدا، ولم يتزوج طول حياته. وكان مع ذلك على جانب عظيم من الذكاء، وقوة الحفظ، شاعرا، لغويا، متضلعا من فنون الأدب له تصانيف كثيرة ورسائل مأثورة.

معروف الرصافي

المعري شاعر البشر

رويدك ايها القارئ، لا تعجب لهذه الصفات التي وصفنا بها صاحبنا، إذ ليس من العجب من رجل كفيف البصر كأبي العلاء ان يكون زاهدا في دنياه، تاركا جميع لذاتها ولا ان يكون ذكيا، شاعرا ، لغويا، متضلعا في فنون الأدب فان له في ذلك نظرا، من الناس في كل زمان ومكان، ولكن العجيب جد العجيب هو ان يفتكر هذا الشاعر في امور لم يفتكر في مثلها اهل الوسط الذي نشأ فيه فياتي بآراء لم يسبقه اليها احد من ابناء جيله.

كذلك كان ابو العلاء إذ نبت امة وحده فنشا حر الفكر في جيل مقيد الافكار، ومطلق النظر في رهط اسير للعادات، فباح باسرار انار بها الافكار وجاء باقوال نقم بها على البشر جميع ما هم فيه من عادات متبعة، وتقاليد موروثة، وديانات مختلة، وعبادات معتلة، واحكام جائرة، واخلاق فاسدة، وحكومات مستبدة الى غير ذلك من الامور.

لقد قلت مرة في ابي العلاء: إنه شاعر البشر.

اما الان فاقول: إنه شاعر الخلق كافة، إذ لم تكن نظراته الحكيمة مقصورة على بنى آدم بل تجاوزتهم الى غيرهم من سابح في الماء، وطائر في الهواء، ونابت في الارض وطالع في السماء، وهذه لزومياته طافحة بالشواهد على ما اقول. فما اجدره بان يدعى شاعر الخلق، او شاعر الدنيا والاخرة.

اختلف الناس في هذا الرجل الفذ، فمن طاعن عليه، ومن ذائد عنه. فالفريق الأول عزاه الى الكفر وجعله من الزنادقة، والفريق الثاني نسبه الى الايمان وجعله من الاولياء اولى الكرامات. فاما الفريق الأول فليسوا بصائرية لانهم إذا جعلوا قائل الحق زنديقا فالزندقة لا تنقص شيئا من قدر ابي العلاء، وقد قال هو:

لحي الله قوما إذا جئتهم
بصدق الاحاديث قالوا: كفر

واما الفريق الثاني فليسوا بعارفيه. لأنه هو الذي ينكر عليهم ذلك قبل الطعانين عليه. وليس كونه كما قالوا بزائده قدرا على قدره الجليل.

اما نحن فبيننا وبين ابي العلاء عصور واجيال، فاذا اردنا ان نعرف جلية امره فليس فيما يهدينا اليها شيء اصدق من آثاره التي بقيت بعده بين ايدينا الى يومنا هذا، واشهر تلك الآثار ديوانه المسمى باللزوميات، فهو كتابه الوحيد الذي نطق فيه بالحقيقة منظومة، واودعه حكمه الناصعة، وفلسفته الرائعة فما لنا ولأخبار الرواة، ونحن نرى ابا العلاء بكتابه هذا حيا مقيما بين ظهرانينا، فلنسأله عن نفسه فانه يجيبنا جوابا شافيا بصراحة ما فوقها صراحة.

كنت قبل هذا نظرت في اللزوميات بمنظار الصناعة الشعرية فالتقيت منها زهاء ستمائة بيت كلها غرر، ولم انظر اليها عند انتقائها إلا من جهة الصناعة بقطع النظر عن الموضوع، ثم جمعتها في كراسة وسميتها "الزم الألزم من لزوم ما لايلزم" فبتلك الكراسة المنتقاة تتجلى للقارئ شاعرية المعري وحكمته معا. غير انها لا يتضح بها مذهبه ولا تعرف منها اراؤه وضوح تام لأني تركتا كما هي في الاصل مبعثرة غير مرتبة.

وذلك ان كتاب اللزوميات اذا نظرت فيه رأيت نظيمه منثورا، فهو مختلط الابيات غير متماسكها، حيث تجد في الغالب كل بيت منه قائما بنفسه من جهة المعنى واللفظ غير مرتبط بما قبله ولا بما بعده. ففي الصفحة الواحدة منه تراه يتكلم في مواضيع شتى فتقرأ منه البيت في السماء، والذي يليه في الارض، والاخر مما يليه في الحيوان، وما بعده في شيء آخر، وهكذا الى آخره. ويندر ان ترى بيتين او ثلاثة ابيات منه متواليات في موضوع واحد، ومرتبطات المعاني بعضها ببعض وسبب ذلك انه لزم مالا يلزم في القوافي فاضطرته هذه الصناعة اللفظية عند نظم كل بيت الى ان يفكر في قافيته قبل نظمه. وذلك يقتضي في الغالب ان يكون المعنى تابعا للقافية، ومبنيا عليها فيأتي البيت منقطعا عما قبله، وتكون القافية في كل بيت هي العامل الوحيد في تعيين موضوعه الخاص كما لا يخفي على كل من مارس صناعة قرض الشعر من الناس.

ولما كان شعر اللزوميات كله على هذا النحو غير مبوب، ولا مفصل بحسب مواضيعه صعب للقارئ ان يحيط باراء ناظمه الفلسفيةن ومذاهبه الاجتماعية إلا بعد تمحيصه، وجمع متفرقاته، ورد كل بيت منه الى قرينه، وتنقيح متناقضاته التي كان ابو العلاء يتعمدها مراعاة لأهل زمانه، وردا للتهم عنه، واتقاء شر الجاهلين المتعصبين، فبعد ذلك تتجلى غياهب الغموض عن ارائه، وتظهر للعيان مذاهبه ومناحيه.

وقد اخذت على نفسي، بعد انتقاء "الزم الألزم من لزوم مالا يلزم" ان امحص للقراء هذا الكتاب الجليل لكي تظهر لهم اراه صاحبه، ويقربوا من تناول فرائده، واقتطاف فوائده، ولم اقصد بذلك إلا خدمة الحقيقة، ومزيد التنويه بصاحبه الذي هو شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء، وقد التزمت الا اتكلم عنه بشيء بل اترك الكلام له فيتكلم هو عن نفسه، ويعرب عن ارائه ولا يظنن القارئ اني معه في كل ما قال، بل في ارائه مالا اوافقه عليه كرأيه في مسألة الحجاب، وانما انا حاك عنه بل هو الحاكي عن نفسه لا غير.

وربما انكر على هذا العمل بعض اسرى التقليد من الجامدين، ولكن خذ عنك ايها القارئ الكريم ! فلعمري ان قوما يكونون من ضيق العقل بحيث لا يحتملون الاصغاء الى ما قاله ابو العلاء، ولو غير موافقيه على ما قال، لجديرون بالزوال، لانهم بعيدون عن الكمال، وإني لانزه ابناء هذا العصر عن ان يكونوا من جمود الفكر في هذه الدركة السفلى.

ونحن إذا نظرنا في المواضيع التي خاض ابو العلاء عبابها في كتاب اللزوميات وجدناها كثيرة غير ان المهم منها ينحصر في المسائل الآتية:

١- الإله ٢- الأديان ٣- العبادات ٤- نسخ الشرائع ٥- أهل الأديان ٦- الصوفية ٧- القائم المنتظر ٨- العقل ٩- الموت والحياة ١٠- الروح والجسد ١١- ما بعد الموت ١٢- الشك واليقين ١٣- البعث والنشور ١٤- الجزاء ١٥- زوال العالم ١٦- حكمة خلق الخلق ١٧- الجبر ١٨- الاقدار ١٩- الجد والحد ٢٠- الخير والشر ٢١- الدنيا ٢٢- الغرائز ٢٣- الناس ٢٤- العزلة ٢٥- النساء ٢٦- الحجاب ٢٧- الزواج ٢٨- تعدد الزوجات ٢٩- النسل ٣٠- اختلاط الانساب ٣١ السياسة ٣٢- الحرب ٣٣- الرفق بالحيوان ٣٤- الجن ٣٥- الخرافات ٣٦- الخمر ٣٧- الفلسفيات.

وها نحن نقص عليك آراء ابي العلاء في هذه المسائل واحدة بعد اخرى على الترتيب المذكور

مقال نشر في ٢٧ نيسان ١٩٢٤

كانت الندوة هذا الأسبوع متميزة في النادي العربي بلندن بإدارة الإعلامية المغربية فاطمة الحسن حيث تحدثت فاطمة عن حياة المعرى باختصار، ثم تعريف بالضيف الباحث نبيل الحيدرى.
ثم الكلمة للأستاذ نبيل الحيدرى عن فيلسوف المعرة خلال فترة إقامته ببغداد وأثرها الكبير عليه، ثم كانت الأسئلة والمداخلات والملاحظات متميزة لحضور كثير من حيث النوعية والكمية ودام لأكثر من ساعتى حوار علمى بين الحضور والمحاضر.

نبيل الحيدرى

فيلسوف المعرة فى بغداد

ملخص المحاضرة:
كانت بغداد مدينة العلم ودار الخلافة وحاضرة الإسلام ومركز الحضارة وتلاقح الفكر وملتقي الأشراف والتجار والأدباء والمثقفين... إزدحم الناس على بغداد من كل أطراف الدنيا وسميت (دار السلام) حيث يقصدها الشعراء والأدباء والعلماء في شتي الفنون والمعارف والآداب... كانت بغداد كعبة العلم والادب فيها ماء عذب وظل ظليل وعلم جم وأدب ثري وكل ما تشتهيه الأنفس...
يصفها طه حسين (كانت بغداد كباريس اليوم فلاتري في العالم الإسلامي شابا أتم الدرس في بلده إلا وهو يتحرق شوقا الى الرحلة الى بغداد ودراسة العلم فيها من أصفي موارده وأعذب مناهله ...)
وكانت بغداد مقصد صيادي الثروات من المرتزقين بالشعر عند ابواب الخلفاء والامراء ولكن المعري كان عف النفس زاهدا لم يرتزق بشعره، ولقد رد شعرا على من غمزه بمظنة السؤال قائلا:
أنبئكم أني على العهد سالم ... ووجهي لما يبتذل بسؤال
وأني تيممت العراق لغير ما ... تيممه غيلان عند بلال
أبو العلاء المعري كان يحب بغداد كثيرا وقد دعاه البغداديون اليها، بعد أن ظلمه أمير حلب حتي كتب (والله يحسن جزاء البغداديين فقد وصفوني بما لا أستحق وعرضوا على أموالهم ودعوني الى بلادهم)
وجد البغداديون المعري غير جذل بالصفات ولاهش الى معروف الأقوام
قصد المعري بغداد سنة ٣٩٨ هجرية منتصف الثلاثينات من عمره وأخذ سفينة للرحيل لكن ولاة السلطان أخذوا السفينة وصادروها مما اضطره الى طريق آخر خطير وصعب حتي وصل بغداد قائلا:
وبالعراق رجال قربهم شرف هاجرت في حبهم رهطي وأشياعي
على سنين تقضت عند غيرهم أسفت، لا بل على الأيام والساع
كما أرسل المعري رسالة الى خاله أبي القاسم جاء فيها (ورعاية الله شاملة لمن عرفته ببغداد فقد أفردوني بحسن المعاملة وأثنوا على في الغيبة وأكرموني دون النظراء)
هو القائل: لنا ببغداد من نهوي تحيته فإن تحملتها عنا فتحييتا
كذلك: متي سألت بغداد عني وأهلها فإني عن آل العواصم سآل
إذا جن ليلي جن لبي وزائد خفوق فؤادي كلما خفق الآل
ان وجود المعري ببغداد كان سببا في الكثير من الاحداث والمنازلات الشعرية والادبية والمذهبية والفكرية في جو المدينة المحتقن اصلا بشتي المدارس والنزعات الادبية والعقائد الفكرية والتيارات المختلفة
لقد صادف يوم وصوله موت الشريف الطاهر والد الشريفين الرضي والمرتضي، وحصلت قصص ووقائع منها إنشاد الأشعار في المتوفي شاعرا بعد آخر، حتي قام أخيرا المعري بقصيدته الرائعة ومطلعها
أودي فليت الحادثات كفاف مال المسيف وعنبر المستاف
وما أن سمع الشريفان قصيدته التي هزت كيانيهما حتي نزلا اليه إجلالا سائلين:
لعلك أبا العلاء المعري
قال نعم
فأكرماه وقدماه ورفعا مجلسه ثم استأثرا به
مع ذلك كله كانت بغداد تمتحن الوافدين وهكذا كان الإمتحان صعبا مستصعبا في المعري لكنه نجح بتفوق وتميز نادرين كأعجوبة الدهر وفريد العصر
عشق المعري بغداد وماءها، قائلا:
شربنا ماء دجلة خير ماء وزرنا أشرف الشجر النخيلا
عرضت عليه كتب بغداد من مدينة العلم وبيت الحكمة وكثير من خزائنها فكان كما قال ابن الفضل (جعل المعري لايقرأ عليه كتاب إلا حفظ جميع ما يقرأ عليه)
تحدث نبيل الحيدري قصصا عديدة عن شدة ذكائه وفرط ذاكرته، وحديث عن اللزوميات وسقط الزند ورسالة الغفران وغيرها وتم اختيار قصائد معينة ومناقشتها وحكمه الكثيرة التي صارت مضربا للأمثال وما تميز به عن غيره
منها: في سقط الزند
ولما رأيت الجهل في الناس فاشيا تجاهلت حتي ظن أني جاهل
فوا عجبا كم يدعي الفضل ناقص ووا أسفا كم يظهر النقص فاضل
إذا وصف الطائي بالبخل مادر وعبر قسا بالفهاهة باقل
وقال السهي للشمس أنت ضئيلة وقال الدجي للصبح لونك حائل
وطاولت الأرض السماء سفاهة وفاخرت الشهب الحصي والجنادل
فيا موت زر إن الحياة ذميمة ويا نفس جدي إن دهرك هازل
ثم ذكر قصصا أربعة في الحوار والجدل بين المعري والمرتضي
منها قول المعري
يد بخمس مئين عسجد وديت مابالها قطعت في ربع دينار
تناقض مالنا الاالسكوت له وان نعوذ بمولانا من النار
يقصد ان اليد اذا قطعت كانت ديتها تعادل خمسمائة دينار عسجد هذه اليد نفسها تقطع اذا سرقت ربع دينار وهويتساءل عن ذلك وتناقض مسكوت عنه يعوذ به من النار . وعندها ردّ عليه المرتضي
عز الأمانة أغلاها، وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري
ولايذكر عادة ابو العلاء في بغداد دون ان تذكر مصادمته الشهيرة مع الشريف المرتضي ، فهذا الاخير حين حاول

manarat
WWW. almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

نائب رئيس التحرير
علي حسين

الاخراج الفني
خالد خضير

التدقيق اللغوي
محمد حنون

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة والفنون

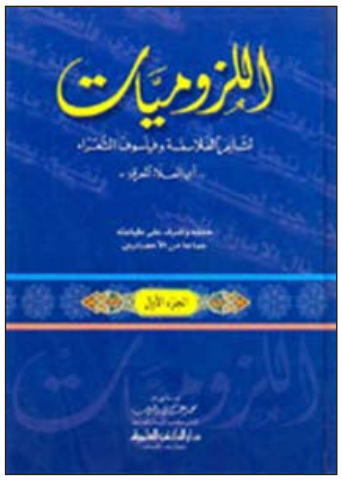

الانتقاص من الشاعر المتنبي رد علىه ابو العلاء صاحب كتاب خاص في المتنبي، منوها بمطلع لامية المتنبي الشهيرة
لك يامنازل في القلوب منازل
وفطن الشريف المرتضي لبيت القصيد لأن هذا البيت ليس من أروع قصائده: ان المعري يرد على انتقاصه للمتنبي بقول المتنبي في القصيدة نفسها
واذا اتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي باني كامل
وقصص أخري أكثر ظرافة بين المعري والمرتضي
ثم ذكر الحيدري المجالس الكثيرة المختلفة والمتنوعة في بغداد ودور المعري فيها فلم يترك شاردة ولاواردة دون ان يحاول معرفتها ،فجالس الادباء وحاور الفلاسفة واصحاب الملل والمذاهب ولم يكن يكتفي بالقراءة عنهم بل كان يذهب الى الىهم ويحاورهم ويناظرهم مباشرة
ثم الحديث عن محنته في بغداد وتركه لبغداد في عوامل خمسة شرحها المحاضر نبيل الحيدري
بقي المعري عاشقا لبغداد متأسفا على تركها متمنيا الوفاة فيها، قائلا
يا لهف نفسي على أني رجعت
الى هذي البلاد ولم أهلك ببغدادا
كذلك قال المعري
فبئس البديل الشام عنكم وأهله على أنهم قومي وبينهم ربعي
وعند خروجه من بغداد خرج معه الكثير من البغداديين لتوديعه فقال قصيدته في وداعها
نبي من الغربان ليس على شرع يخبرنا ان الشعوب الى صدع
وبقي يذكر بغداد ويري انها لاتقارن بغيرها من العواصم:
متي سالت بغداد عني واهلها فاني عن اهل العواصم سأل
ويحن الى ربوعها:
ياعارضًا راح تحدوه بوارقه ...
للكرخ سلمت من غيث ونجيتا
لنا ببغداد من نهوي تحيته ...
فإن تحملتها عنا فحييتا
يا ابن المحسن ما أنسيت مكرمة ...
فاذكر مودتنا إن كنت أنسيتا
سقيًا لدجلة والدنيا مفرقة ...
حتي يعود اجتماع النجم تشتيتًا
خيلاء المعري اوقدها ضجيج عاصمة الدنيا وتزاحم الخلق والاهواء والمهارات
قال مفتخرا وهو في بغداد
اني وان كنت الاخير زمانه لات بما لم تستطعه الاوائل
ولعل هذا التفاخر والنزعة لاستعراض النفس والبراعات اللغوية التي لاتجاري هي من دفعت ابا العلاء الى بغداد لينازع ادبائها شرف البلاغة وينتزع منهم وهو الاعمي الاعتراف بقدراته التي تفوق قدرات المبصرين
ثم مالبثت ان اطفاها العمر والعزلة في المعرة ، اذ لم يعرف عن المعري افتخارا بعد رحلته عن بغداد رغم غزارة ماانتجه في معرة النعمان.
وما أن رجع الى سوريا، حتي حبس نفسه الى آخر حياته (رهين المحبسين) بل سماها أيضا السجون الثلاث.
واصبح شيئا من الهجاء في (اللزوميات) ، فهو بعد عودته للمعرة ولزومة بيته، الزم نفسه وشعره بشئ من التشاؤم على نفسه واعماله وصار يطرق مواضيع فلسفية لم يالفها ادب العرب كمثل تبشيره بالنبتانية:
فلاتاكلن ما اخرج الماء ظالما
ولاتبغ قوتا من غريض الذبائح
ولاتفجعن الطير وهي غوافل
بما وضعت فالظلم شر القبائح
ودع ضَرب النحل الذي بكرت له
كواسب من ازهار نبت صحائح
وهناك مقولته المشهورة عندما وصف له الطبيب فروجا في مرضه فتحسسه وصاح : استضعفوك فاكلوك ، هلا اكلوا شبل الاسد
وفي ذلك تصريح استعراضي من ابي العلاء فمن ذا الذي يريد اكل شبل الاسد حتي لو اصطاده او اصطاد الاسد نفسه!
ثم ان الثيران تؤكل وهي ليست بالضعيفة جسديا!
ومضي ابو العلاء في شعره
علاني فان بيض الاماني فنيت والدهر ليس بفان
ويبلغ القمة في نظرته الى الحياة :
غير مجد في ملتي واعتقادي
نوح باك ولاترنم شاد
وشبيه صوت النعي اذا قيس
بصوت البشير في كل ناد
ابكت تلكم الحمامة ام غنت
على فرع غصنها المياد
ان حزنا في ساعة الموت
اضعاف سرور في ساعة الميلاد
ولعل في تباين نفسية ابي العلاء في مقاميه في عاصمة مثل بغداد حيث انفتاحه وزهوه وافتخاره وتفاؤله وبين عزلته في بلدة صغيرة مثل المعرة مادة خصبة لعلماء النفس ليتدارسوا تاثير البيئة على مزاج الانسان وعاداته الىومية بل وعلى معتقداته الدينية والفكرية خصوصا اذا كان ذا اعاقة جسدية كالعمي الذي ابتلي فيه ابو العلاء منذ صغره وشدة الإبتلاءات والمحن التي عاناها

كما شرح نبيل الحيدري بعض مراسلاته ثم قصة وفاته الغريبة تاركا ما يزيد على سبعين مصنفا.
وقد رثاه أكثر من ثمانين شاعرا آنذاك منهم القائل
العلم بعد أبي العلاء مضيع والأرض خالية الجوانب بلقع
ما كنت أعلم وهو يودع في الثري أن الثري فيها الكواكب تودع
لو فاضت المهجات يوم وفاته ما استكثرت فيه فكيف الأدمع
رفض الحياة ومات قبل مماته متطوعا بأبر ما يتطوع
قصدتك طلاب العلوم ولا أري للعلم بابا بعد بابك يقرع
إنه البصير بين عميان تمايز عنهم بحكمة وفلسفة وبصيرة خرق الحجب فوصل الى معدن معرفة (فيلسوف العرة)
ثم فتحت الإعلامية المغربية فاطمة الحسن مديرة الندوةباب الحوار والمناقشة وكانت هنالك مداخلات وأسئلة كثيرة منها
شكر الإعلامي والكاتب خالد القشطيني المنتدي على هذا النشاط والندوة المتميزة وسأل عن وفاة المعري التي أجاب عنها نبيل الحيدري.
ثم سأل عبد السلام أبو شخيوم الفلسطيني هل المعري فيلسوف؟ فشرح نبيل الحيدري عن معني الفلسفة وتعريفها ثم من كتب عن فلسفة المعري مثل طه حسين وعبد الله العلايلي وأمين الخولي ويوحنا قمير في كتاب مستقل عن المعري كفيلسوف في سلسلة فلاسفة العرب، كما كتب المستشرقون الإنكليزي رينولد نيكسون، وليم واط، ديفيد ساموئيل ماركليوث، أغناطيوس كراتشكوفسكي عميد المستشرقين الروس حول فلسفة المعري في رسالة الغفران،...
تحدثت الأستاذة الكاتبة بدور الدادة عن قصيدة الجواهري في المعري وعن الدين والمعري، فناقش نبيل الحيدري قضية الدين والمعري وعن مذهب المعري وآرائه
كما سألت الأستاذة لميس عبد الله عن رسائل المعري الى داعي الدعاة، ورسائله مع الرومان فأجاب عنهما الحيدري. وكان هنالك أسئلة أخري كثيرة منها سؤال عن الفرق بين الشريفين الرضي والمرتضي، والفرق بين المعري والمتنبي، والفرق بين النبي محمد والمعري، وسؤال هل توجد تناقضات عند المعري، وسؤال عن معاني أسماء كتبه: اللزوميات وسقط الزند ورسالة الغفران ورسالة الملائكة وفترات وفقرات وفصول وغايات والأيك والغصون، وتاج الحرة وعبث الوليد والصاهل والشاحج، وأسئلة أخري عن علاقته مع إخوان الصفا ببغداد، وسؤال عن العراقيين الذين كتبوا عن المعري، وعن علاقته بالمرأة وتحريمه للزواج، وتحريمه للحم ومشتقاته، وغيرها التي أجاب عنها نبيل الحيدري جميعا بإسهاب وأدلة وأريحية مما جعل الندوة باتفاق الإدارة وكثير من الأساتذة المشاركين من مختلف الدول العربية، تميزها نوعا كندوة متميزة بعمق ودقة وموضوعية تلقي منذ سنوات متمنين أمثالها.

عن موقع أوان الالكتروني

من قطع رأس المعري ؟

علي حسين

درس الرصافي أشعار أبي العلاء المعري وحفظها واطّلع على معظم ما كتب عنها وكل ذلك في إعجاب شديد وحب صادق، وكان الرصافي يعرف أن المعري ينفر من المديح.، فلم يكتب قصيدة في مديحه، لكنه اتخذ من منهجه في التأليف طريقة ليضع كتبه التي أطلق عليها أسماء "الرسالة العراقية " الرسائل والتعليقات "حتى أن كتابه" الشخصية المحمدية" ذيّله بعنوان فرعي "رسالة في حل اللغز المقدس"، تيمنا برسالة المعري "الغفران " كان أبو العلاء ملهم الرصافي في فلسفة الوجود والحياة، حيث سلك مسلكه في انتقاد الساسة والأديان والمذاهب، وقال الرصافي في الأديان ماهو أكثر جرأة من شاعره المفضل، وعندما أصدر طه حسين كتابه " مع أبي العلاء في سجنه " كتب الرصافي "على باب سجن أبي العلاء" وفيه يرد على طه حسين الذي كان يرى في إعاقة المعري سببا لكثرة شكه ونقده للمجتمع، ويرى الرصافي المعري واعياً متماسكاً مدركاً لنفسه ولتجربته، ولم يكن وليد الإعاقة، ويذهب إعجاب الرصافي بالمعري أن يسميه "شاعر البشر " :

طاول الأرض والسما... شارف الشمس والقمر
لا تقل شاعر العرب... إنه شاعر البشر

فالشاعر الضرير يطاول عنان السماء ويشارف بكلتا يديه الشمس والقمر، فيخترق الواقع والخيال، المعري عند الرصافي هو الأستاذ الذي لا أحد قبله ولا أحد بعده، هو صاحب الشعر الحق وهو كعهده أبدا "قادم ذاهب، حاضر غائب، مقيم مفارق "الإعجاب بالمعري دفع علامة العراق طه الراوي لأن يفرد له كتابا أسماه " أبو العلاء المعري في بغداد " قال فيه: "ثلاث علامات من اجتمعن له كان من عظماء الرجال، وكان له الحق في الخلود فرط الإعجاب من محبيه ومريديه،وفرط الحقد من حاسديه، وجو من الأسرار يحيط به كأنه من الخوارق، وهذه العلامات الثلاث مجتمعات بأبي العلاء على نحو نادر"وهذا الوصف ليس ببعيد عن قصيدة الجواهري " قف بالمعرة ". يقول الجواهري في (ذكرياتي): "كانت القصيدة قد تبوأت تاج قصائدي وملكت شغاف قلبي وضفاف مشاعري، وأصبحت المولود الذي انتظرته بفارغ الشوق والصبر واللهفة، ومن حسن حظي أن استطعت أن أنهي القصيدة قبل الافتتاح بيوم واحد – مهرجان المعري بدمشق عام ١٩٤٤- ولم يكن لديّ متسع لكي أغامر بما يزيد عليها أو ينقص منها، كما هو شأني في كثير من قصائد غيرها ". ويضيف: "كان عبثا أن تنجح محاولاتي في الساعة نفسها واليوم نفسه الذي تلقيت فيه هذا النبأ المفاجئ، نبأ المشاركة في ذكرى المعري فسهرت ليلتي الأولى حتى الصباح وألحقتها بأخرى وفي الليلة الثالثة كانت حصيلتي من هذه النهارات والليالي الثلاث، قصيدة لا تقل عن السبعين بيتا. يخبرنا بأنه صرخ: وجدتها!! عندما كتب مطلع القصيدة:

قِفْ بِالْمَعَرَّةِ وَامْسَحْ خَدَّهَا التَّرِبَا ... وَاسْتَوْحِ مَنْ طَوَّقَ الدُّنْيَا بِمَا وَهَبَا

كدت أوقظ النيام وأنا أعيده بما يشبه الصراخ، هذا هو أبو العلاء المعري وجدته، غير أن ما وجده الجواهري ليس أبا العلاء المعري وإنما الجواهري نفسه،الجواهري الذي كان يتلمس أفكار المعري ليجد من خلالها ذاته القلقة الصاخبة التي هي شبيهة بذات المعري الضاجة، المنفرة، الباحثة في كل شيء، وعن أي شيء:

نَعوا عَلَيْكَ وَأَنْتَ النُّورُ، فَلْسَفَةً ... سَوْدَاءَ لا لَذَّةً تَبْغي وَلا طَرَبَا
وَحَمَّلُوكَ وَأَنْتَ النَّارُ لاهبـة ... وِزْرَ الذي لا يُحِسُّ الحُبَّ مُلْتَهِبَا

ويضيف الجواهري في "ذكرياتي": "بينما كنت ألقي القصيدة كانت يدي اليمنى تمتد، عفو الخاطر، إلى الكتف اليسرى للدكتور طه حسين، الذي كان بجانبي، وهذا الرّجل ليس أبا العلاء، لكنه كان الوحيد ممّن يجمع ما بين فكره وملامحه شيئًا غير قليل من خصائصه.

المعري الذي عاش مسالما رافضا الجور والظلم لم يجد من أحزاب الإسلام السياسي اليوم سوى لغة "الفأس" التي انهالت على حكيم المعرة لتعلن عصر غياب الحكمة.. مثلما انهالت فأس أخرى في مصر لتقطع رأس طه حسين معلنة بوضوح انسحاب مصر من عمادتها للثقافة والفنون والفكر.. ليست القضية في قطع رؤوس رموز النهضة العربية.. لكنها في الجماعات الظلامية التي لا تريد للناس أن تعيش في النور.. وليس بعيداً عن رأس المعري المقطوع، قتل المعارض التونسي شكري بالعيد، وفتوى اباحة دم المعارضين التي اصدرها رجل دين في مصر، واعتقال السيد احمد القبنجي في ايران التي وجدت في رأسه خطرا يجب استئصاله.

لا مكان للاختلاف مع الآخر.. فالفأس دائما حاضرة